



سلسلة كتاب الجيب

أ - ١٠٢

A - 102

الهاربة

باربرا كارتلاند

العنوان الأصلي لهذه الرواية بالانكليزية:

A DOG, A HORSE AND A HEART

ISBN 0-7493-1280-7

الفصل الأول

١٨١٦

قال الإيرل: «لقد بعت ذلك الكلب.»

فنظرت إليه مانيلا ذاهلة، لحظة، ثم سألته: «ماذا تعني، يا عمي هربرت؟ لا يمكنك أن تبيع فلاش. لا يمكن أن يكون هذا صحيحاً.»

«علمت أن أباك كان قد أخذه معه للصيد السنة الماضية وكان برفقة اللورد لامبورن. فأعجب اللورد بطاعة الكلب وسرعته، إلى درجة بالغة.»

أجابت مانيلا: «لقد كان أبي شديد الولع بفلاش. ولكن الكلب كلبي وأنا صاحبته.»

نظر إليها عمها متفحصاً قبل أن يقول: «هل لديك سند مكتوب بذلك؟»

أجابت: «كلا بالطبع، وهل من الممكن أن يكتب لي أبي ورقة بما يعطيني؟ ولكن فلاش معروف دائماً بأنه كلبي.»

فقال الإيرل: «إنك لن تكوني بحاجة إليه في لندن، وهكذا، سيأتي اللورد لامبورن لأخذه غداً العصر.»

فصرخت مانيلا: «لا يمكنك ذلك، لا يمكنك أن تفعل بي هذا

يا عمي. إنني لا أسمح بذلك وأنا لن... لن أتخلى عن فلاش.»

فمشى الإيرل أوف أفوندال ثم وقف بجانب المدفأة وقال: «والآن، دعينا نتحدث بصراحة، يا مانيلا. إن أباك لم يترك سوى القليل جداً من المال. وأنا الآن مسؤول عنك. فعليك أن تكوني شاكرة لما أقوم به لأجلك.»

فلم تجب مانيلا، بينما تابع عمها يقول: «لقد تكلفت عناء كبيراً لكي أوفر لك قضاء فترة في لندن، وستكونين برفقة الدوقة أوف ويستمور.»

وكان لدى مانيلا فكرة عن هذه الدوقة بأنها جميلة جداً. فقد كانت سمعت أباها مرة يقول إن أخاه يخدع نفسه ظاناً أنها تحبه.

وتابع عمها يقول: «إن أكثر الفتيات يقفزن فرحاً لفكرة أن يكن مرافقات لدوقة إلى حيث تعرفهن إلى المجتمعات. كذلك أظن أنني دبرت لك زوجاً.»

فشهقت مانيلا، وقالت: «لا أريد أن أكون سيئة الأدب، يا عمي. ولكنني لا أريد أن يدبر لي أحد زوجاً. فأنا أريد أن أتزوج رجلاً أحبه.»

فضحك الإيرل بجفاء، وأجاب قائلاً: «المثل يقول، (إن الشحاذين لا يمكنهم الاختيار) يا ابنة أخي العزيزة. لقد كنت في النادي الأسبوع الماضي، عندما دخل الدوق أوف دانستر.»

فقالت: «لقد كان الدوق أوف دانستر صديقاً لأبي.»

فأجاب: «أعلم ذلك، وأعلم أيضاً أنه لا يظن بشيء في العالم في سبيل أن يكون له ولد يرثه.»

فقالت بتردد: «لا أظن أنك تفكر في أن يكون... هذا الدوق... زوجاً لي. فهو كبير السن.. جداً.»

فسألها: «وماذا في ذلك؟ إنه دوق، وغني، وإذا كنت محظوظة في الزواج منه، فسيكون مستقبلك عظيماً.»

فردت عليه بحدة: «لا بد أن تكون مجنوناً إذا ظننت أنني سأفكر بالزواج من رجل من عمر.. جدي.»

فقال عمها: «قبل أن تسمعيني المزيد من وقاحتك دعيني أذكرك بأن عليك واجب الطاعة لي، حيث أنني الوصي عليك. فإذا أنا قلت لك إن عليك أن تتزوجي الدوق هذا، فيجب أن تتزوجيه.»

فقالت غاضبة: «حتى ولو جررتني إلى أمام رجل الدين، فسأرفض أمامه الزواج.»

فقال العم وعيناه تقدحان شرراً: «إن المشكلة معك، يا مانيلا، هي أن الدلال قد أفسدك. إنني لا أنكر أنك فتاة جميلة، ولكن عليك أن تطيعيني حالاً في ما أقوله لك، وإلا ستموتين جوعاً ولن تجدي قرشاً باسمك.»

وسار نحو الباب حيث وقف وهو يقول: «سأذهب الآن وأخبر غلوفر بأن اللورد لامبورن سيكون هنا غداً العصر ليأخذ الكلب فلاش، ورأيي أن أبيعه أيضاً حصانين، أما الباقي فلا ينفع سوى للحامين.»

ثم خرج من الغرفة صافقاً الباب خلفه بعنف، بينما بقيت مانيلا تحدق في أثره. لم تستطع أن تصدق ما سمعت، وأنها لم تكن حالمة.

أيمكن حقاً لعمها أن يتصرف نحوها بمثل هذه القسوة وانعدام الضمير؟

كيف يسليها فلاش الذي ربته منذ كان جرواً صغيراً، بينما يعرف ولعها به؟

لقد كان كلباً رائعاً، بالغ القوة ولكن برشاقة. لونه أبيض مبقع بالسواد، وكان يعجب كل من شاهده.

وكان قريباً منها على الدوام، ويتبعها أينما ذهبت. ولم يكن قد خطر ببالها قط، حين أخبرها عمها بأنهما سيذهبان إلى لندن، أنها لن تأخذ فلاش معها.

والآن، ألا يكفي أنها ستفقد منزلها حيث ولدت وترعرعت، لتفقد فلاش، وهيرون أيضاً؟ هيرون جوادها الذي كانت تمتطيه دوماً، والذي كان معروفاً بأنه يخصها وحدها.

كانت تعلم جيداً أنه لم يكن في الإصطبلات ما يعجب شخصاً مثل اللورد لاميورن سوى حصانين فقط، أحدهما حصانها ذاك.

وفوق هذا كله، يريد عمها أن يزوجها من شخص لا يمكن لها أن تحبه يوماً ما.

يريد أن يزوجها من عجوز متداعٍ يريد زوجة، فقط لكي ينجب منها وريثاً.

وتملكها الذعر حتى ودت لو بإمكانها الصراخ، والصراخ...

ولكنها عادت فحدثت نفسها بأن عليها أن تتمالك نفسها، وذلك لكي تجد لنفسها مخرجاً من هذا الوضع الذي شعرت معه بأنها تكاد تختنق.

ورفعت نظراتها إلى صورة أبيها المعلقة، فوق المدفأة، والتي رسمها له في شبابه رسام شهير كان قد سبق ورسم صورة لولي عهد المملكة.

كان أبوها، إيرل اوف أفونديل السادس يبدو رجلاً بالغ الحساسية والشهامة، وذلك بعكس عمها تماماً. وطالما كانت تتأمل، ذاهلة، في ذلك الفرق البيّن بين أبيها وأخيه الأصغر.

وتذكرت مرة حين تلقى فيها فاتورة باسم أخيه لم يتمكن هذا من تسديدها، وكيف أن أباها قال: «في كل أسرة يوجد شخص سيىء، ولا شك أن هربرت هو أسوأهم جميعاً».

وتمكن أبوها، بشكل ما، من سداد فاتورة أخيه، ولم يكن هذا للمرة الأولى، ولا الأخيرة.

ولا شك في أن عسر الأحوال والضنك الذي يعانونه الآن، هو نتيجة تبذير عمها هربرت وإسرافه.

وطبعاً، زادت الحرب من تعسر الأمور، إذ جعل عدداً من مستأجري المنازل يتخلّون عنها نظراً لاتساعها. وكذلك لم يستطيعوا حتى دفع الأجور المعقولة التي كان يطلبها الإيرل.

وفي نفس الوقت، تحسن دخل المزرعة حيث توقفت الواردات إلى الأسواق، من الخارج.

ومن هنا، كان على انكلترا أن تكفي نفسها بنفسها. ولكن ما أن انتهت الحرب، حتى شعر المزارعون بمرارة الحاجة، وأغلق عدد من مصارف الأقاليم أبوابه.

وتمنت مانيلا، وقد تملكها اليأس، لو كان أبوها ما زال حياً.

وكانت قد داهمته نوبة قلبية في الخريف الماضي.

وهكذا ورث أخوه هربرت، العضو السيىء في الأسرة، اللقب.

وحيث أنه لم يكن ينتظر أن يحصل على ذلك قبل سنوات كثيرة، فقد فقد اتزانه أثناء الجنازة، ولم يستطع أن يبدو كما هو منتظر منه من وقار وحزن.

ذلك أنه كان هناك إمكانية أن يتزوج أبوها مرة أخرى وينجب وريثاً.

ولكن، ها هو ذا الآن قد أصبح هو الإيرل.

وحالما انتهت مراسم الجنازة، أخذ هربرت ينظر حوله مفتشاً عن شيء يبيعه. ولكن معظم اللوحات والأثاث كانت وقفاً على ورثة اللقب دون ذكر للأسماء.

وكان هربرت قد قال لمانيلا دون أي أثر من الحرج: «يمكنني الآن أن أجد لنفسي عروساً غنية.»

ولما لم تجب، نظر إليها لاوياً شفته: «لا تنظري إليّ بهذا الشكل. إنك تعلمين جيداً، كما أعلم، أن أباك قد عانى من الإفلاس مؤخراً، وهذا شيء كنت أنا قد عانيت منه سنوات وسنوات.»

وسكت لحظة، ثم تابع يقول: «ولكن الإيرل، سواء كان غنياً أم فقيراً، هو شيء يختلف عن أخ أصغر لا يرث، قانونياً، شيئاً، وليس منتظراً منه شيء.»

فقالت له بجمود: «إذن، فأنا أتمنى لك أن تعثر على عروس تجد السعادة معها.»

فأجاب: «سأكون سعيداً مع أية امرأة بشرط أن تكون غنية.»

ثم ذهب إلى لندن مصطحباً معه ما بإمكانه بيعه، وكان من بينها أوانٍ صينية كانت أمها شديدة الولع بها. وعندما حاولت مانيلا منعه من إخراجها من القصر قال لها: «لا تكوني غبية. إنك تعلمين أنني بحاجة إلى المال، كما أنني

سأفتح منزلنا في ساحة بيركلي في لندن لمصلحتك فقط قبل أن يكون ذلك لمصلحتي.»

فنظرت إليه ذاهلة، وسألته: «وكيف يمكنك الإنفاق على كل هذا؟ لقد كان أبي يقول دوماً ان ذلك يكلفنا كثيراً إذ سنكون بحاجة إلى اقتناء عدد كبير من الخدم.»

فقال: «أعلم ذلك. ولكنني سأغلق هذا المنزل، تاركاً فيه بعض الخدم فقط، إذ ربما أردت إقامة حفلة هنا.»

وعندما رأى ما بدا على وجه مانيلا من ذعر، سارع يقول: «ذلك طبعاً لكي أترك في نفس العروس الغنية انطباعاً قوياً في نفسها عندما ترى منزل أسرة الإيرل أوف أقوندال الكبير.»

ومكث في لندن فترة طويلة جعلت مانيلا تأمل في أن يكون ما سبق وقاله، مجرد كلام فارغ.

وربما لم يجد العثور على زوجة غنية سهلاً كما كان يظن.

وإذا به يعود أمس بشكل غير متوقع.

ومن اللحظة التي دخل فيها المنزل، شعرت مانيلا بالإنكماش عنه.

فقد بدا غير مشابه لأبيها على الإطلاق. وكانت دوماً تشعر بأن ثمة شيء في عمها يبعث على عدم الرضا.

وفوجئت وهي تراه، بمبلغ ما يبدو عليه من أناقة بالغة.

فقد كان مستقلاً عربة جديدة غالية، كما أن الحصانين اللذين يجرانها كانا مليئين صحة ونشاطاً.

وعندما دخل المنزل، ساورها رجاء في أن يكون قد عثر على عروسه المبتغاة.

ذلك أنها كانت ترجو، إذا هو تزوج، أن لا تعود فتراه كثيراً.

وهاهو ذا الآن يفجر القنبلة.

وبعد الصدمة التي أحدثها في كيانها قوله ذاك، لم تعد تستطيع التفكير بوضوح.

كان فلاش مستلقياً على السجادة، فجثت بجانبه تقول بصوت متهدج: «لا أستطيع تحمل خسارتك... لا أستطيع. وطالما سمعت عن مبلغ قسوة اللورد لاميورن على خيله وكلابه.»

وانهمرت الدموع على وجنتيها، فمسحتها وهي تتابع قائلة: «ماذا بإمكاني أن أفعل؟ آه يا فلاش، أخبرني ماذا أفعل، كما انني سأموت إذا ذهبت إلى لندن وأرغمت على الزواج من رجل فظيع...»

كانت تعلم أن هذه فكرة هائلة، ولكنها، مع ذلك، حقيقية.

وكيف يمكنها العيش من دون كلبها وحصانها؟ ألا يكفيها فقدان أمها أولاً، ثم والدها بعد ذلك، والذي كانت تكن له أعظم الحب؟

لقد شعرت عند موته، بأن المستقبل قد أظلم في وجهها.

ولكن لم يخطر ببالها قط، حتى في أسوأ مخاوفها مما قد يقوم به عمها، لم يخطر ببالها أنه سيفصلها عن الحيوانين الوحيدين اللذين تحبهما أكثر من أي شيء آخر في العالم. وأنه سيأخذها إلى لندن ليلقي بها إلى زوج اختاره لها. حتى انه لم يكلف نفسه عناء استشارتها.

وقالت: «كلا.. لن أقبل بهذا.. لن أقبل.»

ورفعت نظرها إلى صورة أبيها.

ونظراً للهجتها التي تكلمت بها، ظن فلاش أنها ستخرج إلى النزهة. فقفز من مكانه وركض نحو الباب.

عند ذلك قالت مانيلا: «إنك تخبرني ما عليّ أن أفعل، آه يا فلاش، لشدّ ما أنت ماهر. لماذا لم أفكر في هذا بنفسي؟»

وقفزت واقفة، ثم فتحت باب المكتب، فركض فلاش يسبقها إلى الخارج.

عند ذلك، أخذت مانيلا تخطط للهرب.

وكان عليها أن تتمسك بالهدوء وضبط الأعصاب لئلا يمنعها الاضطراب من التفكير بوضوح.

كانت تدرك أن مسألة تحصيل المال الكافي لمعيشتها هي مشكلة حقاً.

كما أن عليها أن تخفي شخصيتها بمهارة لكيلا يعلم عمها بمكانها.

دخلت إلى غرفتها، وجلست أمام مرآتها تنظر إلى نفسها، وكأنها تسأل صورتها المنعكسة في المرآة، عما عليها أن تفعله.

كانت مانيلا قد أمضت طوال حياتها في الريف. وأثناء الحرب لم يكن لديها سوى جيران قلائل، كما أنه لم يكن هناك أية حفلات.

ولهذا لم تكن تدرك مبلغ ما كانت عليه من جمال رائع يدير الرؤوس. فقد كانت غير واعية إلى نفسها.

وكان عمها هربرت، بعد وفاة أبيها، قد أخذ يحدّق فيها بشكل غير عادي، فسألته حينذاك: «إنك تضايقني بنظراتك هذه، يا عمي. هل ثمة لطخة على طرف أنفي؟»

فأجاب ببطء: «كنت أفكر في أنك شابة جميلة. إنك في

الواقع تشبهين كثيراً صورة الكونتيس أوف افوندال التي كانت دوماً تعتبر أجمل الجميلات على مختلف العصور.»

فدهشت مانيلا، وقالت بشيء من الخجل: «شكراً، يا عمي، ولكن هذه هي المرة الأولى التي تمدحني فيها.» ولم يجب، بل بدت في عينيه نظرة جعلت شيئاً من الخوف يتسرب إلى نفسها.

لقد ساورها شعور غريب بأنه كان يفكر في أن جمالها هذا سينفعه في شيء لم تستطع إدراكه.

وهي الآن تدرك أنه سيستفيد جداً إذا هي تزوجت من رجل غني مرموق المكانة.

كانت استفادة اجتماعية واضحة، بجانب المال طبعاً.

وتذكرت مانيلا كم من المرات كان أبوها يقول: «لا أفهم لماذا يريد أخي أن يعيش في لندن، ولكنه دوماً هكذا. فهو لا يحب الريف ولا الحياة فيه. كما أنه لا يحسن الرماية مطلقاً.»

وكان هذا، كما كانت مانيلا تعلم، يحط من قيمته في نظر أبيها الذي كان يعتبر دوماً أن الرجل الانكليزي الراقي مفروض فيه دوماً أن يحب الريف ورياضته، وأن يحرص على ركوب أفضل الخيل، ورمي أعلى الطيور.

وأحياناً، عندما كان ينزل عليهم بعض الأقارب ضيوفاً، كانت مانيلا تسمعهم يتحدثون إلى أبيها عن عمها، بصوت خافت. ولم يكن هذا يهمها بشكل خاص.

ولكنها كانت تسمع أحياناً شيئاً من كلامهم، وكان يتعلق بإسراف عمها.

كما كان لديهم الكثير مما يقولونه عن علاقاته الاجتماعية. أما ما كان يهم والدها في المكان الأول، فهو ديون عمها، والتي كثيراً ما كان الدائنون يحضرون أوراقهم إليه لدفعها عندما يعجز أخوه عن ذلك.

ولم يكن أمام الإيرل، حينذاك سوى أحد أمرين، إما أن يدفع ديون أخيه، وإما أن يتركه يدخل السجن.

كانت مانيلا تعلم تماماً مبلغ تألم أبيها لهذا الاستنزاف المستمر لما يملكه من مال قليل نسبياً.

لقد كان هذا يمنعه من اقتناء جياد أصيلة، أو القيام بالإصلاحات الضرورية للمنزل الذي ابتدأت مياه الأمطار تتسرب من خلال سقفه.

وكانت مانيلا قد سألت أباها مرة: «لماذا تستمر في القيام بذلك لأجل عمي هربرت؟»

فأجاب بشيء من الأسى: «مهما فعل هربرت، يا عزيزتي، فهو أخي، فدمنا واحد، ثم إن اسم الأسرة يهمني جداً.»

وكان هذا يعني أن ليس بإمكانه أن يسمح بأن يذهب هربرت إلى السجن. وكانت مانيلا تعلم أن هذا ما كان عمها هربرت معتمداً عليه.

وقالت تخاطب صورتها في المرآة: «أنا أكرهه.. أكرهه.»

وعادت تتساءل عما عسى أن تتمكن من عمله لكي تحصل على قوتها.

كان شعرها بلون أشعة الشمس الذهبية عند الصباح، وكانت عيناها بلون الغابات الخضراء. وكانت إحدى الخادمات قد أخبرتها مرة أن تكوين وجهها يشابه شكل

القلب. وعندما نظرت إليه الآن في المرآة، أدركت أن ذلك كان صحيحاً.

وكانت عيناها بالغتي الاتساع، إنما الغريب فيهما أن أهدابهما كانت قاتمة اللون. وكان هذا، كما قال أبوها، نتيجة لزواج جدة لها اسبانية الدم بأحد جدودها الأوائل.

ومن سوء الحظ أنه لم يكن هناك صورة لتلك الجدة، فكان هذا دائماً مثار حزن لمانيلا.

كانت تفكر في أنه ربما كان السبب هو أن الأسرة لم تكن تحبها.

وكانت هناك جدة مانيلا التي كانت فرنسية، وكانت مانيلا تدرك كم كانت تتألم لكون بلادها في حرب مع بلاد زوجها.

وعلى كل حال، فإن يومياتها تنبيء كم كانت سعيدة للغاية.

ولم يكن لونها يميل إلى السمرة، كما هو متوقع بالنسبة إلى الفرنسيات، ولكنها كانت شقراء حيث أنها من شمال فرنسا. ولكن عينيها فقط كانتا تنبئان بأنها ليست انكليزية على الإطلاق وكانت جدتها هذه هي التي علمت مانيلا اللغة الفرنسية منذ طفولتها. وهكذا، كانت مانيلا تقرأ كتاباً فرنسياً بنفس السهولة التي تقرأ بها كتاباً انكليزياً، قالت لها مرة، وكان نابوليون في تلك الأثناء يغزو القارة الأوروبية، ويهدد بغزو انكلترا: «إنني واثقة، يا جدتي، بأنني يجب أن لا أتكلم لغة أعدائنا.»

فأجابت جدتها: «إنك لا تعلمين متى تجدين ذلك ذا نفع،

وأنا أظن أن الإنكليز يخطئون كثيراً عندما يصرون على عدم التحدث بلغة غير لغتهم. إن عليهم أن يختلطوا بسكان البلاد الأوروبية الأخرى سواء أحبوا ذلك أم لا.»

وكان على مانيلا أن تعترف بأن هذا صحيح.

وهكذا تابعت تكلم اللغة الفرنسية مع جدتها وقراءة الكتب التي كانت هذه تعيرها إياها.

وقد ذهبت جدتها إلى مكان ناء، وذلك للترحيب بالمهاجرين الفرنسيين الذين لجأوا إلى انكلترا. وكان معظمهم رفض العودة إلى فرنسا أثناء توقف القتال رغم أن نابوليون كان أعلن أنه سيرحب بعودتهم.

وعندما عادت الحرب تندلع بين فرنسا وانكلترا سنة ١٨٠٤، شكروا حظهم على أنهم لم ينجروا إلى دعوته تلك.

لقد قالت جدتها، يومذاك هازئة: «إن ذلك الرجل المدعي، حديث النعمة، هو عار على بني جنسه.»

فقد كانت صريحة على الدوام، وجريئة بشكل غير معتاد، وذلك من نواح كثيرة.

وأخذت مانيلا تتساءل عما كان يمكن أن يكون تصرف جدتها لو كانت في ظروفها هي حالياً.

كانت واثقة من أن جدتها لن تسمح لأحد بأن يملي عليها إرادته في أن تتزوج من شخص لا ترضاه.

كلا ولا ترضى بأن يبيعوا فلاش.

وخاطبت صورتها في المرآة: «الحق مع فلاش يجب أن أهرب.»

وهكذا أمضت بقية النهار تحاول أن تقرر ما تأخذه معها.

والأهم من ذلك كله، هو كيف تحصل على النقود التي تمنعها من الموت جوعاً.

على الأقل، إلى أن تجد من يستخدمها عنده.

كما أن أخذ حصانها هيرون معها، كما ستأخذ الكلب لن يكون بالأمر السهل.

إن بإمكانها أن تتصور ما ستثرثر به الخادمات فيما لو وصلت إليهم خادمة ممتطية فرساً مطهمة، ويبدو عليها النبل وكرامة الأصل.

وأخذت تعزي نفسها قائلة بأنها واثقة من أن أمراً ما قد يحدث صدفة، فيغيّر من وضعها هذا.

ولكنها، في نفس الوقت، شعرت بالخوف يتملكها. ذلك أن هربها سيحدث ضجة هائلة.

وإذا ما وجدوها، وأعادوها إلى البيت مشمولة بالخزي والاحتقار، فهي تعلم بمبلغ ما سيقابلها به عمها من سخرية. وهو عند ذاك سيحكم من سيطرته عليها. وعليها عند ذاك أن تطيعه طاعة عمياء.

ومرة أخرى، ارتجفت وهي تفكر في الدوق دانستر، وتذكرت ما كان سبق وقاله أبوها مرة من أنه، الدوق دانستر، أصبح أكبر سناً من أن يذهب للصيد معهم، وأنه قد يصبح، على الأغلب، خطراً على الآخرين.

وإذا كان الدوق، في ذلك الوقت، كبير السن، فكيف هو الآن، إذن؟

لقد كانت مانيلا أمضت حياتها، منذ توفيت أمها، مع أبيها، ما جعلها في منتهى البراءة.

فلم تكن لديها فكرة واضحة عن الزواج، وما يستتبع ذلك.

كانت أمها تحب زوجها حباً عميقاً، وكذلك كان هو تجاهها.

وكلما كان بعيداً عن البيت، ثم عاد، كانت أمها تهرع إلى القاعة للترحيب به. فكانا يتبادلان كلمات الشوق دون مراعاة للخدم الذين كانوا كبار السن وقد خدموا لديهم مدة طويلة.

وهكذا نشأت مانيلا في جوّ يسوده الحب. وعندما كانت تفكر، وذلك في حالات نادرة، في الزواج، كانت تتصور زوجها وسيماً طويل القامة مثل أبيها. إنها، عند ذلك، ستنظر إليه وقد أشرق وجهها، تماماً كما كانت تنظر أمها إلى أبيها فتبدو أكثر جمالاً من المعتاد، بينما يقول هو لها، كما سمعت أباها يقول لأمها مرة: «لقد اشتقت إليك، يا حبيبتي. وإن يوماً لا تكونين فيه معي، هو يوم دون نهاية.»

فتجيبه أمها: «وأنا كنت أعد الساعات طوال وقت غيابك.»

فكان الواحد منهما ينظر إلى الآخر وقد شملتهما سعادة كانت مانيلا تشعر بتموجاتها بينهما.

فكانت تفكر فيما بينها وبين نفسها، هذا ما أريد أن أشعر به. ولن... لن أتزوج رجلاً لا يتملكني نحوه مثل تلك المشاعر.

وكان هذا عهداً قطعته على نفسها.

ثم أخذت تحزم أمتعتها.

كانت تعلم أن كل ما ستأخذه معها، ستشده إلى ظهر الحصان هيرون. وكان هناك مكان لخفين خفيفين في

جيب تحت السرج، فقد كان عليها أن تستغل كل مكان يتاح لها.

وعندما فكرت ملياً، شعرت بأن عليها أن لا ترتدي بذلة ركوب الخيل.

فقد كانت بحاجة إلى ملابس تستطيع العمل بها بسهولة وبدون شعور بالمضايقة.

ولكنها ما زالت لا تستطيع التفكير في نوع العمل الذي سيتاح لها القيام به.

ولكنها، عندما جلست تتناول العشاء مع عمها، أدركت أن مسح الأرض والنوم في غرفة على السطح هو أفضل عندها من العيش مع عمها أو مع زوج لا تحبه. وكان قد أحضر معه من لندن كل أنواع الحلوى، والتي كان المنزل خالياً منها. حتى انه طلب من الخدم شراء أشياء لائقة للعشاء وأعطاهم النقود لذلك، كما سمعت مانيلا والدهشة تتملكها.

وكانوا، عند ذهابه إلى لندن، يفتشون في الغابات عن الأرانب. وقد وجدوا في جداول المياه أكثر من بطة، وكذلك البيض الذي كانت تبيضه الدجاجات فكانوا يطوفون الأنحاء يبحثون عن شيء يؤكل. ذلك لأنه لم يكن لديها ما تشتري شيئاً لهم.

وهكذا تدبروا أمرهم مع أن مانيلا لاحظت أن خصرها قد أصبح أكثر نحافة من قبل.

فكانت الخادمة العجوز إميلي تشكو متذمرة إذ كانت تجد صعوبة في تضييق ثيابها التي اتسعت عليها.

كما أن عمها قد أحضر معه فطيرة، وشعرت بأنه يراقبها خفية ليرى حجم القطعة التي ستقتطعها لنفسها. وهكذا

أرغمت نفسها على الاكتفاء بقطعة صغيرة منها. وقال عمها ساخراً: «كنت أعلم أنني لن أجد هنا ما يؤكل. ولكنني استأجرت طباخة ممتازة لبيتي في لندن.» فانتبهت مانيلا إلى كلمة (بيتي) التي تلفظ بها، وكانت تتصور مبلغ احتقار أبيها لإقفاله المنزل الريفي الذي أمضى فيه أجداده ثلاثمائة عام، ليفتح، بدلاً منه، ذلك البيت في لندن الذي كان يعتبر جديداً بمقارنته بهذا المنزل، والذي كان اشتراه جده.

وكان عمها يقول: «إنني مصمم على إقامة عدة مناسبات جميلة جداً. وطبعاً ستساعدينني، قبل زواجك بالاحتفاء بالضيوف.»

ونظر إليها ملياً قبل أن يتابع قائلاً: «يجب أن تشتري بعض الملابس المناسبة، إذ أن ملابسك هذه لا تصلح مطلقاً.»

فرفعت ذقنها قائلة: «كان أبي يحبني في ملابس بسيطة، ومع أن هذا الثوب قد صنعته خياطة قروية، فإن طرازه مأخوذ عن مجلة السيدات.»

فأطلق عمها ضحكة ساخرة: «إذا كنت تظنين أن ثوبك هذا يقبله الذوق السليم، فأنت مخطئة جداً، وإذا شئت الحقيقة، يا ابنة أخي العزيزة، فهندامك يبدو في غاية التشوش، فشعرك ليس مسرحاً على الطراز الحديث، وهذا الثوب، إذا أنت ظهرت به، سيكون مثار الضحك.»

فقالت مانيلا: «لا أشك في أن الحق معك يا عمي، ولكن أبي كان يقول إن من الخطأ ابتياع شيء لا نستطيع دفع ثمنه.»

كانت تريد أن تشعره بالضيق، ولكنه ضحك بدلاً من ذلك،

وهو يقول: «ربما كان أبوك مسروراً من تركك تتعفنين هنا بين النباتات. ولكنني سآخذك إلى العالم الحقيقي، عالم الناس المهمين الذين سيكونون ذوي نفع لنا نحن الإثنين.»

وأدركت مانيلا أنه عاد للحديث عن الدوق، فتصلب جسمها. وإذا بعمها يشملها بنظرات كأنه يقيّمها بها، ثم يقول: «ربما، على الأغلب، سيعجبه أن يكتشف جمالك بنفسه، ولكننا في نفس الوقت لا يمكننا المجازفة.»

وسكت قليلاً، ثم عاد يقول: «كلا، فهذا الأمر أكبر من أن نتركه للمجازفة. إنني سأجعلك ترتدين ملابس لائقة تماماً، وتصففين شعرك، وربما لمسة من الكريم على خديك تمنحهما بعض اللون.»

وجعلت الطريقة التي كان يتكلم بها، جعلت مالينا تظن نفسها تستمع إلى فحيح أفعى.

أرادت أن تثور عليه قائلة إن ليس ثمة شيء يجعلها تحاول جذب الدوق أو أي رجل غيره لا يحبها لنفسها.

ولكنها ما لبثت أن أدركت أن ليس ثمة فائدة من كلام كهذا لرجل لا يملك ذرة من الحساسية.

فقد كان يعتبر الحياة مجرد وسائل يستغلها مادياً.

فقالت وهي تضع فنجان القهوة من يدها: «أظن يا عمي، أن من المناسب أن أتركك تتناول قهوتك، هذا إذا أذنت لي.»

فأجاب الإيرل: «إنني مسرور إذ أراك عالمة ببعض التقاليد المتعارف عليها، على كل حال، فأنا واثق من أن هناك الكثير منها لا تعرفينه.»

فوقفت مانيلا وهي تقول: «أرجو أن تأذن لي، يا عمي هربرت، في أن أذهب إلى فراشي الآن لأن لديّ غداً الكثير

من المشاغل، هذا إذا كنت مصمماً على سفرنا إلى لندن بعد غد.»

فأجاب عمها: «أرى أن عليك أن تأخذي معك هذه الخرق التي ترتدينها. وحالما تجد لك الدوقة بعض الملابس المناسبة، يمكننا أن نحرق أكثر ثيابك هذه.. وهذا، في رأيي، شيء حسن.»

فأخذت مانيلا تفكر في مبلغ جرأته في انتقاده اللاذع هذا لها، بينما هو السبب في عدم قدرتها على شراء ثوب جديد منذ فترة طويلة.

وفي مبلغ جرأته على نعتها بالريفية الساذجة، لاختلافها عن النساء اللائي يعرفهن في لندن.

تلك النسوة اللاتي كن السبب في ما يصدر عنه من فضيحة تلو أخرى.

وأطبقت مانيلا شفتيها، تمنع بذلك نفسها من أن تجيبه بشيء، ثم انحنت بأدب وتوجهت نحو الباب. فقال لها عمها: «لا تنسي أن لامبورن قادم غداً. ويمكنك أن تغسلي ذلك الكلب، فهو يبدو وكأنه خارج لتوه من برميل القمامة.»

وأدركت مانيلا أنه كان يحاول استفزازها متعمداً. فهبطت السلم، وفلاش في أعقابها، وهي تتمتم من بين أسنانها: «أكرهه... أكرهه... أكرهه...»

الفصل الثاني

كانت الشمس قد ابتدأت ترسل أشعتها من خلف الأفق، عندما استيقظت مانيلا.

لم تكن قد رقدت سوى فترة قصيرة، وذلك لتفكيرها المستمر في ما عليها أن تصنع.

ارتدت بسرعة ثيابها التي كانت أعدتها الليلة البارحة. بينما حزمت ما ستأخذه معها في صرة.

كانت قد نوت أخذ ثلاثة من أبسط أثوابها المصنوعة من الموسلين الذي لا يتكرش، والتي كانت تأمل أن تدوم لها طوال الصيف.

ولم تفكر، حالياً، في ما قد يحدث أثناء الشتاء.

وكان ثوب الركوب دافئاً، وكان يكفيها إذا نزل المطر. وأخذت معها حذائين وبعض الأشياء الصغيرة التي تحتاجها.

وكانت الليلة الماضية قد انتظرت إلى أن رقد عمها، فنزلت إلى غرفة الأسلحة حيث أخذت أحد مسدسات أبيها. ذلك أنها لم تكن غبية فلا تدرك أنها قد تتعرض إلى مواجهة بعض قطاع الطرق.

كان عليها أن تأخذ معها الأشياء التي لا قيمة لها. ولكنها كانت ممتطية الحصان هيرون. وكانت تسمع أن قطاع الطرق يسلبون أفضل الجياد التي يمسكون بها.

وأخيراً، بعد طول تفكير، صممت على أخذ بعض النقود.

وكان هناك بعض مجوهرات أمها والتي لم تكن لها قيمة تذكر. فقد كانت هدايا من أبيها. وكان دوماً يشعر بالأسى لعدم استطاعته شراء ما هو أكثر قيمة.

وكان خاتم زواج أمها من الماس، وكان هنا كذلك عقد من الماس كانت تتزين به في المناسبات. ولكن أحجاره لم تكن كبيرة أو نفيسة ولكن ثمنه، كما حدثت مانيلا نفسها، سينفعها عند الحاجة، لمدة شهر أو حوالي ذلك.

أما ما كان ينقصها، فهو النقود.

لقد بقيت مستلقية تفكر في ما تصنع. وأخيراً تذكرت أن عمها قد أعطى الطباخة عدة جنيهات.

ولم تكن هذه من راتبها المتراكم، وإنما لكي تشتري وجبة مناسبة، حسب قوله، للورد لامبورن.

كان قد قال لها: «لقد أرسلت خادماً يدعو اللورد إلى الغداء. وأريدك أن تطهي وجبة مناسبة وليس كتلك الوجبة التافهة التي قدمتها لي البارحة وهذا الصباح، والتي لا تناسب سوى الحيوان.»

وكان هذا الكلام، في رأي مانيلا، فظاً خالياً من الذوق، ذلك أن الطاهية كانت قد بذلت غاية جهدها في تجهيز الطعام بالمبلغ التافه الذي بين يديها، ورأت المرأة المسنة تحمر خجلاً، ولكنها لم تتكلم، بينما تابع عمها يقول بخشونة: «إشتري فخذ خروف طري وبعض الجبن من التي لا تبدو وكأنها لا تلائم سوى الجرذان.»

وسكت قليلاً، ثم أضاف يقول: «وأظن من الأفضل أن تقدمي بعض الفاكهة. وليكن ثمار الفريز أو التوت. وأظن أن عليك أن تشتري هذا أيضاً.»

وعندما أنهى كلامه، خرج من الغرفة.

وأدركت مانيلا أن الطاهية كانت تتمتم متذمرة، فقالت لها برقة: «إنني آسفة، فلا يحق لعمي أن يتكلم معك بهذا الشكل.»

فقالت المرأة: «إنني، كما تعلمين، بذلت جهدي، ولكن هذا كل ما بمقدوري أن أقوم به.»

فقالت مانيلا مواسية: «أعرف هذا طبعاً. ولكننا كلنا نعرف من هو عمي هربرت.» وتنهدت، ثم تابعت تقول: «إن بإمكانه، بعد أن أصبح إيرل، أن يقترض ما يشاء من نقود وهو ما لم يكن باستطاعته القيام به من قبل.»

فقالت المرأة: «لقد أخبرني خادم اللورد أن عمك عليه ديون طائلة، ولكنه وعد الدائنين بأن كل ديونهم ستسدد بعد أقل من شهر.»

فحملقت مانيلا في الطاهية بذهول، ثم سألتها: «وكيف سيمكنه ذلك؟»

«لم يعرف الخادم ذلك، ولكنه يظن أن الأمر يتعلق بحفلة عرس.»

فأجفلت مانيلا. فقد كانت تعلم تماماً لمن سيكون ذاك العرس.

إذن، فعمها، كما كانت توقعت، ينوي أن يضغط على الدوق عندما يصبح زوجها. فهو سيتصرف معه بنفس الطريقة التي كان تصرف بها مع أبيها.

فقد اعتاد أن يشير إلى خطر فضيحة ستشمل الأسرة بأجمعها.

وكان واثقاً تماماً من أن أخاه سيدفع.

والآن، هاهوذا ينوي أن ينقل هذه الوسائل إلى الدوق، والذي لن يقبل، طبعاً، بأن تطال فضيحة ما، زوجته.

ودخلت المطبخ وكانت تعلم أين تحتفظ الطاهية بالنقود الخاصة بالإنفاق على شؤون المنزل. وكانت في علبة موضوعة على المنضدة. وعندما فتحتها، رأت فيها ما توقعته، وهو جنيهين ذهبيين. هذا بالإضافة إلى كثير من النقود الصغيرة.

أخذت الجميع، تاركة رسالة موجهة إلى عمها كانت قد أعدتها سلفاً، على المنضدة. فقد كانت تريد أن تراها الطاهية قبل اكتشافها اختفاء النقود.

كانت تريد أن تمنع بهذه الرسالة المختصرة، عمها، من أن يدرك أنها هربت من المنزل.

كتبت تقول:

عمي العزيز هربرت،

بعد أن ذهبت أنت إلى فراشك، الليلة الماضية استلمت دعوة من إحدى صديقاتي تدعوني للذهاب والمكوث معها لحضور حفلة ستقيمها غداً مساء.

ولما كنت أنا تواقة إلى حضور هذه الحفلة، فأنا سأذهب إلى هناك راكبة الحصان هيرون. وكذلك سآخذ فلاش معي.

ربما سيشعر اللورد لاميورن بخيبة أمل، ولكنني أرجوك أن تطيب خاطره، ويمكنه أن يعود في يوم آخر.

ولما كنت بحاجة إلى شيء من المال آخذه معي، فقد أخذت ما كنت أنت أعطيته للطاهية ثمن طعام، ولهذا يجب أن لا تلومها إذا كنت ستعطيها المزيد لأي شيء تطلبه.

أنا سأعود قريباً جداً، ولكن ذلك يعتمد على طول الوقت الذي ستأخذه الحفلة.

ابنة أخيك

مانيلا

وقد تعمدت أن لا تضع الرسالة في غلاف وذلك لكي تطلع عليها الطاهية.

وهكذا صعدت إلى غرفتها وفي جيبها النقود والمسدس.

لقد كانت تفترض أن هذا سيمنحها يومين على الأقل يمكنها أثناءهما أن تختفي عن الأنظار.

وبعد ذلك، ستجعل من المستحيل على عمها أن يعثر عليها.

ومع ذلك، شعرت وهي تنزل من غرفتها، وتلتفت إلى جانبيها، بالخوف يتملكها.

ذلك أنها عاشت دوماً في هذا المنزل الذي ولدت فيه، مع أبيها وأمها اللذين كانا يحميانها.

وها هي ذي الآن تخرج إلى عالم غريب لا تعرف عنه شيئاً. ولكنها، إذا هي عادت إليه فسيواجهها، ليس فقط غضب عمها، وإنما ذلك الزواج الكريه من الدوق.

وقالت تحدث نفسها وهي تخرج من باب جانبي متجهة إلى الإصطبل، يجب عليّ أن أنجح ليس أمامي سوى هذا.

كانت تعلم أن سائس الاصطبل غلوفر غير موجود في هذا الوقت من الصباح، ومساعده الوحيد هو ابنه البالغ من العمر ستة عشر عاماً والذي هو حالياً معه في الكوخ.

ولكن كان هناك سائس جديد هو الذي أحضره معه عمها أمس من لندن.

وكانت قد ألقت عليه نظرة واحدة عرفت منها أنه رجل ثقيل الظل. ولم تجد صعوبة في العثور على مكان نومه.

فقد يكون في الإصطبل، وقد يكون في المنزل.

وتساءلت عما إذا كان يعلم أن عمها سيبيع هيرون. فإذا كان ذلك، فهو سيغضب إذا رآها تأخذ الجواد. وكان كل شيء هادئاً في الفناء. وعندما دخلت الإصطبل، لم يكن ثمة سوى الجياد تتحرك. فألقت نظرة إلى الغرفة التي اعتاد فتيان الإصطبل الرقاد فيها في الماضي. فشعرت بالإرتياح إذ وجدتها خالية. وهذا يعني أن سائس عمها كان نائماً في المنزل.

وهكذا أسرجت جوادها بسرعة قبل أن يأتي أحد، كما حزمت أمتعتها عليه، ثم فتحت باب الإصطبل.

وشعرت بأن وقع حوافر الجواد على الأرض المبلطة، سيوقظ الجميع. ولكنها ما لبثت أن أدركت أن هذا الشعور هو نتيجة خوفها من أن يحصل لها في آخر لحظة، ما يمنعها من الذهاب.

وكانت السماء الآن قد ازداد تألقها عما كان عليه عندما خرجت من المنزل، كما أن النجوم قد بدأت تبهت وتختفي أمام الفجر.

امتطت صهوة جوادها وسارت به من خلف المنزل متجنبة مقدمته. وعندما ابتعدت بالجواد خففت السرعة. كانت تعلم أن عليها أن تبتعد قدر إمكانها، ولهذا لم تكن تريد أن تتعب الجواد منذ البداية. وكذلك كان عليها أن تفكر في فلاش.

وكان هذا مسروراً بخروجه معها، فكان يركض أمامها، مفتشاً في طريقه عن أرانب. وكان يبدو عليه بوضوح أن هذه المرة هي بالنسبة إليه مغامرة جديدة مثيرة. وتمنت مانيلا لو أن لها مثل شعوره.

كان عقلها يخبرها بأنها تقوم بالعمل الصواب. ولكن قلبها كان ممتلئاً حزناً لتركها بيتها ومكمن ذكرياتها عن أمها وأبيها اللذين كانا دوماً يرعيانها طفلة وصبية.

وها هي ذي الآن، وقد كبرت، تواجه عالماً غريباً مخيفاً بمفردها.

اتجهت بجوادها ناحية الغرب حيث كانت المباني قليلة ولا يلحظها أحد.

فقد كان لديها شعور، قد يكون خاطئاً، في أن عمها، عندما يدرك أنها هربت، سيظنها ذهبت ناحية الجنوب وحيث أن لندن من ناحية الشمال، فسيفترض أنها ستتجنب طريق المدينة بأي ثمن.

استمرت في السير إلى أن اعتلت الشمس قبة السماء وازدادت حرارة الجو، عند ذلك لجأت إلى ظلال الأشجار. وبعد حوالي الثلاث ساعات، بدا واضحاً أن الجواد هيرون لم يعد بمثل نشاطه الذي ابتدأ به النهار.

فقد كان راضياً تماماً بالسير الهادىء.

وكذلك فلاش توقف عن الركض في المقدمة، وأخذ يسير في المؤخرة بهدوء.

ولم تكد مانيلا ترى أحداً في طريقها، وهي تتنقل من حقل إلى آخر، مفضلة ذلك على السير في الطرقات والذي كان يعني المرور خلال القرى.

وكانت مانيلا تعرف تماماً فضول القرويين.

فالغريب يثير التعليقات دوماً، خصوصاً ذلك الذي يمتطي جواداً فاخراً. ومع وجود فلاش خلفها، كان من المؤكد أن كل من يصادفها سيهتم بالنظر إليها، وسيجعلهم ذلك يتذكرون، فيما بعد، أنهم رأوها تمرّ من هناك.

وتابعت السير إلى أن أدركت أن النهار قد انتصف شاعرة بالجوع.

وانتبهت، بعد فوات الأوان، إلى غبائها الذي جعلها تأتي دون طعام.

وكانت قد توقفت مرتين لتسمح لهيرون وفلاش بأن يشربا من الجدول. وفي آخر مرة، نزلت بنفسها وأخذت تغسل وجهها. فقد كان الجو شديد الحرارة.

وابتدأت تفكر في أن من الحكمة أن تأخذ قسطاً من الراحة. ولكنها، في نفس الوقت، كانت متلهفة إلى أن تبتعد عن عمها قدر استطاعتها.

وحسبت أنها لا بد أمضت قرابة السبع ساعات ممتطية. وهذا يعني أنها لم تعد في مناطق الجوار حيث من الممكن أن يتعرف عليها أحد.

وأخذت تطمئن نفسها قائلة، إنني في أمان... أنا واثقة من أنني أصبحت في أمان.

ولكنها، على كل حال، كانت تعلم أن من الخطأ تناول طعام في مطعم حيث ستتعرض، دون شك، إلى بعض الأسئلة.

والأفضل أن تجد دكاناً في قرية تشتري منه بعض شرائح اللحم.

وهكذا، بعد مسيرة ميل أو أكثر قليلاً، تركت الحقول إلى الطريق العام حيث أخذت تسير ببطء. وكما توقعت، سرعان ما لاحت لها أسقف المنازل.

وعند اقترابها، بدا كل شيء هادئاً آمناً.

كانت الأكواخ ذات حدائق أمامية تتألق فيها الأزهار كما كانت الأبواب والنوافذ مدهونة جيداً.

ولم تدهش عندما رأت بعد حوالي دقيقتين، متجراً قروياً مزدهراً.

ولم يكن ثمة أحد في الشارع، ما عدا عدة أولاد يلعبون الكرة.

كما كان لديهم كلب ابتعد متكاسلاً لدى رؤيته فلاش.

واتجهت ماتيلا نحو الدكان حيث ترجلت عن جوادها، ثم ربطت لجامه إلى وتد خشبي كبير يبدو أنه كان يستعمل لهذا الغرض.

ثم دخلت المتجر وفلاش في أثرها.

كانت على صواب في تفكيرها بأن المتجر كان مزدهراً حيث رأت، في نظرة واحدة، كثيراً من الرفوف الممتلئة بالبضائع.

كان هناك خبز طازج، وكذلك شرائح من اللحم المقلي.

وما أن دخلت، حتى نهض عن كرسيه رجل متوسط

السن رضي الوجه يضع نظارات على عينيه، وتقدم نحوها.

«صباح الخير يا سيدتي. ماذا أستطيع تقديمه إليك؟»

فأجابت: «أريد شريحتين من هذا اللحم الذي يبدو لذيذاً جداً، ولا أدري إذا كان يوجد لحام في القرية يمكنه أن يبيعني بعض الفضلات لكلبي.»

فنظر البائع إلى فلاش وقال: «إن كلبك هذا حسن المنظر.»

ثم أخذ يقطع اللحم تمهيداً لقليه. وسألته: «ما إسم هذه القرية؟»

وقبل أن يجيب، فتح باب المحل على مصراعيه، ثم اندفع داخلاً رجل بدا وكأنه رئيس خدم.

ثم صرخ قائلاً: «يا سيد غيتي، يا سيد غيتي. لقد حدثت كارثة في القصر، وأنت الوحيد الذي بإمكانه مساعدتنا.»

فوضع صاحب المحل سكينه: «كارثة؟ ما الذي حدث يا سيد دوبينز؟»

فأجاب الرجل: «إنها السيدة وايد. لقد فاجأها المرض، وهي الآن مشلولة.»

فهتف السيد غيتي: «لا أستطيع تصديق ذلك. كيف حدث هذا؟»

فأجاب الرجل: «كانت تشكو من وعكة صحية. فظننت أنها قلقة بالنسبة إلى ما عليها أن تطهو للماركيز. فقد كان العمل كثيراً عليها.»

فهز صاحب المكان رأسه وقال: «لقد تقدمت بها السن، وطالما أخبرتها بأن عليها أن تتقاعد.»

فقال السيد دوبينز: «لقد تملكتها الإثارة عندما علمت بأن الماركيز سيصل اليوم. وقد أرسلت أطلب الطبيب ولكنني كنت أعلم حتى قبل أن يخبرنا الطبيب، بأن ليس ثمة ما يمكن صنعه لأجلها.»

فتمتم السيد غيتي: «كم يؤسفني هذا.»

فقال السيد دوبينز وقد تغيرت لهجته: «حسناً، أما ما جئت لأجله فهو لسؤالك عما إذا كنت تعرف من بإمكانه استلام مكان الطاهية السيدة وايد. على الأقل إلى أن تجد بديلة لها.»

فسأله السيد غيتي: «استلام مكانها؟ أتعني في الطهو؟»

فأجاب الرجال: «طبعاً هذا ما أعنيه. لأن الماركيز سيصل مع ثلاثة من أصدقائه هذا المساء، ويقولون إن المزيد من الأصدقاء سيأتون السبت.»

فقال السيد غيتي: «لا أعرف يا سيد دوبينز أي شخص بإمكانه طهو طعام في مستوى طهو السيدة وايد.»

فقال السيد دوبينز: «هذا صحيح، ولا أحد ينكر ذلك. ولكن ليس بإمكاننا أن ندع اللورد وأصدقاءه يجلسون إلى مائدة خالية. لا بد أنه يوجد في القرية من بإمكانك إرشادنا إليه.»

فقلب الرجل يديه يأساً. عندئذ، والرجلان والقفان ينظر الواحد منهما إلى الآخر، قالت مانيلا دون تفكير: «أنا بإمكاني ذلك.»

ولو أن السقف انهار على رأسي الرجلين، لما كانت دهشتهما أشد. وقال السيد غيتي غير مصدق: «هل يمكنك الطهو يا سيدتي؟ أحقاً يمكنك ذلك؟»

أجابت مانيلا: «إنني أحسن ذلك تماماً. وفي الواقع لقد كنت على وشك أن أسألك إذا كان بإمكاني أن أجد عملاً في هذه القرية الجميلة.»

ومرت لحظة صمت أخذ الرجلان أثناءها يحدقان في الفتاة.

وأخيراً، قال السيد دوبينز بلهجة بان فيها الزهو: «أظن أن علي أن أوضح لك أن سيادة الماركيز يتوقع طهواً على مستوى عالٍ، وكانت السيدة وايد تقول أمس فقط انه، حيث أنه كان أمضى في فرنسا مدة طويلة، فهو يتوقع بعض أنواع الطعام الفرنسي الغير معروفة في انكلترا.»

فقالت مانيلا: «إنني فرنسية بالولادة. وبإمكاني أن أطهو أصنافاً فرنسية من النوع الذي أظنك تريده، وذلك منذ صغري.»

فوضع السيد غيتي يده على جبينه: «يبدو عليك يا سيد دوبينز، وكأنك اصطدمت بالحظ. من كان يظن أن سيدة كانت تشتري شريحتي لحم مني، بإمكانها أن تطهو طعاماً فرنسياً؟»

ولكن السيد دوبينز أراد أن يطمئن، فقال: «هل أنت واثقة تماماً من أن بإمكانك الطهو على الطريقة الفرنسية؟ إن ما يدعو إلى الحرج أن نقدم إلى سيادة الماركيز طعاماً عادياً بعد غيبته الطويلة تلك في الخارج.»

فسألته مانيلا: «ما اسم سيادة الماركيز؟»

فسحب دوبينز نفساً عميقاً، ثم أجاب: «إنه الماركيز باكينغدون وهذه القرية التي أنت فيها هي قرية باكينغدون الجميلة.»

اتسعت عينا مانيلا، فقد كانت سمعت بالماركيز باكينغدون من قبل.

ومن لم يسمع به؟

ذلك أنه بعد الحرب، أعلن القائد الدوق أوف ويلينغتون، شكره ومديحه لكل أولئك الذين عملوا تحت إمرته.

وقد خص بالمديح الإيرل أوف باكينغدون الذي قاد إحدى فرقه العسكرية، والتي كان نجاحها ملحوظاً. فقد كان الإيرل قد أنقذ، بذكائه الوقاد، حياة الكثير من الرجال الذين لولاه، لهلكوا بأيدي الأعداء.

وفيما بعد، عندما انتهت الحرب، أقام ولي عهد البلاد حفلة على شرف الإيرل.

وكان أروع ما في الحفلة، عندما منحه الأمير ولي العهد لقب (ماركيز).

أما سبب اهتمام مانيلا بكل هذه الأخبار في الصحف، فهو أن والدها كان غالباً ما يتحدث عن والد الماركيز هذا. فقد كانا درسا معاً في كلية إيتون. ولم تنقطع الاتصالات بينهما إلا بعد أن لم يعد في طاقة أبيها المادية السكن في لندن.

كما أنه توقف عن الذهاب إلى رحلات الصيد التي كان يعلم أن الإيرل العاشر باكينغدون سيكون ضيفاً فيها.

وعندما توفي الإيرل، أرسل أبوها تعزية به.

تذكرت أيضاً أنه عندما هزم نابوليون في النهاية، كان الإيرل الحادي عشر هو اليد اليمنى للقائد ويلنغتون في جيش الاحتلال.

ومضى وقت كان لا يمرّ يوم دون أن يأتي ذكر له في صحيفة «المورنينغ بوست».

وكانت هذه هي الصحيفة الوحيدة التي كان يشتريها أبوها. وعندما انتهت الحرب، توقف الثناء على الماركيز الجديد.

وفكرت مانيلا في مقدار الإثارة التي ستشعر بها عندما تطهو الطعام للرجل الذي كان بطلاً بين أقرانه.

ولهذا، قالت بسرعة: «لقد كنت سمعت بسيادته، وأعدك بأن أمله لن يخيب في طهوي، رغم أنه أمضى سنوات في فرنسا.»

فقال صاحب الحانوت: «أتسمع، يا سيد دوبيتز. ليس هناك كلام أحسن من هذا. في رأيي أنك محظوظ تماماً، وذلك لعثورك على طاهية كهذه في اللحظة التي أنت فيها بأمس الحاجة إلى ذلك.»

فأجاب الرجل: «معك حق.» واستدار إلى مانيلا قائلاً: «هل أنت جاهزة يا... آنسة... للحضور معي إلى... القصر الآن فوراً؟»

وتردد حين خاطبها بلقب (آنسة). ورأته مانيلا ينظر إلى يدها ليرى إن كانت تضع فيه خاتم الزواج.

وكانت على وشك الإذعان، قائلة إنها ستذهب معه، عندما ظهر فلاش بجانبها. فقالت: «هنالك شرط واحد، يا سيد دوبيتز. وهو أن أحضر معي جوادي وكلبي هذين.»

وخيل إليها أنها ترى لمحة من الارتياب في وجه الرجل. ولكنه، لشدة لهفته، قال: «طبعاً، لا بأس في ذلك. فهناك أماكن كثيرة في اصطبلات القصر.»

فابتسمت مانيلا، قائلة: «إذن فسأحضر معك بكل سرور.»

ومدت يدها إلى السيد غيتي تصافحه مودعة: «إنني

مسرورة للتعرف عليك، وسآتي لزيارتك في يوم آخر رغم أنني لن أحتاج إلى شرائح اللحم اللذيذة التي تصنعها.»

فقال الرجل باسماً: «أهلاً وسهلاً بك، يا آنسة.»

ففتح السيد دوبينز الباب، وخرجت مانيلا إلى أشعة الشمس.

وعندما اتجهت نحو الحصان، تبعها قائلاً: «إنه جواد أصيل ممتاز هذا، يا آنسة.» وابتسم معجباً.

فأجابت: «شكراً.» لقد لاحظت نبرة فضول في صوته. لقد كان واضحاً أنه يتساءل عن السبب الذي يجعلها، هي مالكة مثل هذا الجواد، تبحث عن عمل.

ثم قال بشكل غير متوقع: «هل لك أن تخبريني باسمك؟ أما أنا فكما تعلمين، إسمي دوبينز وأنا رئيس خدم الماركيز.»

كان هذا ما توقعته مانيلا، واحتارت في ما عليها أن تجيب، ولكنها ما لبثت أن فكرت في أن عمها لو أراد أن يبحث عنها، فهو لن يتوقع منها أن تدعي بأنها فرنسية.

وأول اسم فرنسي خطر ببالها هو اسم جدتها، فقالت ببطء: «إسمي هو شينون. وهو فرنسي طبعاً. ولكنني عشت طوال حياتي في انكلترا. فقد جاء أبواي إلى هنا قبل الثورة مباشرة.»

وشعرت بالأمان لهذا، ذلك أن عدداً كبيراً من الفرنسيين هربوا لاجئين من فرنسا.

وهذا يفسر معرفتها بالطهو الفرنسي.

وفكر السيد دوبينز لحظة، ثم قال: «إسمحي لي بأن أقول إنك تبدين أصغر من أن تكوني طاهية. وأصغر من

أن يكون لك علاقة بالثورة. ومن الأفضل، إذن، أن أقدمك إلى موظفي القصر باسم الآنسة تشينون دون الدخول في التفاصيل مثل كيف بإمكانك الطهو على الطريقة الفرنسية.»

ولفظ الإسم بطريقة خاطئة. فقد كان واضحاً أن استعمال الماركيز لطاهية فرنسية حقيقية، يمكن أن يسبب حرجاً.

فابتسمت له قائلة: «إنني مسرورة بأن يكون إسمي الآنسة تشينون، وشكراً لك لإعطائي هذا العمل.»

وكان السيد دوبينز قد خرج من القصر مستقلاً عربة صغيرة يقودها جواد مطهم. وكان يقف قريباً من هيرون. وكان واضحاً أنه حسن التدريب، إذ رغم أنه لم يكن مربوطاً إلا أنه لم يحاول الإفلات.

وصعد السيد دوبينز إلى عربته، قائلاً لمانيلا: «إتبعيني يا آنسة تشينون.»

فامتطت مانيلا جوادها، ثم سارت خلف دوبينز وهي تلوح بيدها لصاحب المتجر الذي وقف ينظر إليهما.

لم تدهش حين رأت على طول الطريق، جداراً قائماً على جانب واحد منه، وكان واضحاً أنه يحيط بأراضي القصر.

وما لبثا أن وصلا إلى بوابة حديدية ذات تاج موشى بالذهب.

دخل رئيس الخدم بعربته، ومانيلا تتبعه، سائرين خلال طريق تحف به أشجار السنديان، وكانت في هذه الأثناء تفكر في أنها محظوظة فوق العادة. فهي، على

الأقل، قد ضمنت لنفسها مكاناً تأوي إليه ليلاً، وكذلك لجوادها.

كانت فقط ترجو أن لا تسبب خيبة الأمل للماركيز أو لرئيس الخدم الذي وثق بكلامها في أن بإمكانها الطهو.

فقد كانت جدتها هي التي علمتها الطهو الفرنسي.

كانت جدتها قد قالت لها: «عندما كنت فتاة صغيرة أصرت أمي على تعليمي طريقة طهو كل أنواع الطعام الفرنسي، وذلك لتسرّ أبي.» وابتسمت وهي تتابع قائلة: «وعندما تزوجت جدك، كان يطلب مني أحياناً أن أصنع له بعض أنواع الطعام الفرنسية التي لم يكن يحسنها الطهاة الإنكليز مهما اجتهدوا في ذلك.»

وكانت مانيلا سألتها: «ما هو السر في هذا، يا جدتي؟»

فقالت جدتها: «هذا ما سأعلمك إياه.»

فكانت مانيلا تجد متعة فائقة في صنع أنواع من الطعام شديدة الاختلاف عن تلك الأنواع الانكليزية التي تصنعها طاهيتهم السيدة بيل.

وأحياناً، عندما يكون أبوها غائباً أثناء الليل، أو حتى أثناء النهار فقط، كانت أمها تقول لها: «دعينا نرحب بأبيك لنريه مبلغ سرورنا بعودته، وذلك بصنع طعام خاص غير عادي له.»

وهكذا تسرعان معاً نحو المطبخ.

ولأن تعليم جدتها لها كان بهذه الجودة، فقد كانت أمها والطاهية السيدة بيل، تقفان لتتفرجا عليها. فكان سرورهما بالغاً وهما تريان نوعاً أو نوعين من الطعام الفرنسي يختلفان عما يأكلانه عادة.

وحدثت مانيلا نفسها، الآن، بأنها لم تكن تتصور قط أنها ستصبح طاهية محترفة، يوماً ما.

وكأنما كان الحظ يأخذ بيدها نحو مصيرها، فكان هذا الوضع في انتظارها في الوقت الذي لم تكن تتوقعه مطلقاً.

وعندما استدارت، بدا أمامها القصر. وفكرت في أنه النوع المناسب الذي يجب أن يسكن فيه الماركيز بكل نبله ومزاياه.

كان بالغ الإتساع، وقد علمت مانيلا، فيما بعد، أنه كان أنشيء بعد معركة «آجينكورت».

في القرن الماضي، كانت بقايا القصر قد غيرت وأضيف إليها ملحقات. فكان في الوسط قاعدة مركزية برز منها جناحان شرقي وغربي. فالجناح الشرقي كان متصلاً بالقصر القديم.

فالمنزل الآن يحتوي على أكثر من مائة نافذة كانت تتألق في ضوء الشمس.

وكان الفناء أمامه ينحدر إلى بحيرة يقوم عليها جسر أثري.

وكانت الحدائق حول القصر تتألق بالأزهار.

وخلف القصر قامت أشجار على أرض مرتفعة كانت تؤلف منظراً خلفياً رائعاً.

كان المنزل، في الواقع، من الجمال لدرجة أن مانيلا ظنت أنه مجرد تصورات من خيالها، وأنه سيختفي في أية لحظة.

وحدثت نفسها مرة أخرى، كم أنا محظوظة.

وانحنت تربت على عنق جوادها، قائلة له: «وأنت أيضاً

محظوظ. فأنا واثقة من أنه، إذا كان الماركيز يعيش في مثل هذا الترف والرفاهية، فإن الإصطبل سيكون مريحاً هو أيضاً.»

وعندما مروا فوق الجسر، حدثت مانيلا نفسها: «إنني واثقة من أن عمي هربرت لن يعثر علي هنا أبداً.»

الفصل الثالث

عندما وصل السيد دوبينز ومانيلا إلى القصر، دخلا من الباب الأمامي. وقد كان هذا، كما رأت مانيلا، من نوع التنازل من أصحاب القصر، ذلك لأنها جديدة، ولأن الماركيز كان غائباً. وكان إعجابها بالغاً بالقاعة الرخامية التي كانت المنحوتات الإغريقية تقوم في أنحائها. كما كان هناك رف رخامي رائع فوق المدفأة. وكان درابزين السلم مزخرفاً بالذهب والبلور.

كانت مانيلا قد تركت جوادها مع سائس هناك ولكن فلاش تبعها إلى داخل المنزل.

فنظر إليه رئيس الخدم، ثم قال: «سأفتش عن مديرة المنزل، يا آنسة تشيتون. وأظن كلبك معتاداً على العيش معك داخل البيت.»

فقالت بحزم: «نعم. وكان ينام بجانب سريري.»

وخيل إليها أن شيئاً من التوجس بدا على ملامحه، وصعد السلم أمامها. وعندما وصلا إلى قمته، رأت مانيلا شخصاً قادماً في الممر.

كانت مديرة المنزل، في ثوب حريري أسود ناعم وحزام فضي حول خصرها.

قال رئيس الخدم: «مساء الخير يا سيدة فرانكلين. لقد أحضرت إليك طاهية جديدة.»

فهتفت مديرة المنزل المسنة، بدهشة: «طاهية جديدة؟»

ونظرت إلى مانيلا ثم عادت تقول: «إنك لا تعني هذه السيدة الصغيرة بكل تأكيد.»

«بل هي نفسها. وقد أكدت لي، وكذلك السيد غيتي، أنها طاهية ماهرة جداً. واختصاصها، في الواقع، بالأنواع الفرنسية.»

وإذ بدا على السيدة فرانكلين الإرتياب، قالت مانيلا بصوت هادىء: «أؤكد لك انني حقاً طاهية ماهرة، وأنا واثقة، من أن سيادته سيكون راضياً جداً.»

فقالت المرأة: «إذا كان هذا هو الأمر، فإننا محظوظون حقاً.»

ولكن كان يبدو عليها بجلاء، الشك في أن هذه الفتاة الشابة الغريبة الفائقة الجمال، كانت تقول الحقيقة.

وقال السيد دوبينز: «والآن، ما علينا أن نجده، يا سيدة فرانكلين، هو غرفة، بإمكان الآنسة تشينون أن تبقي فيها كلبها معها.»

فهتفت السيدة فرانكلين: «كلب؟ إننا لا نسمح أبداً للعاملين هنا بأن يكون لديهم حيوانات.»

ومضت فترة قصيرة حرجة قبل أن تقول مانيلا بهدوء: «لقد لازمني فلاش منذ كان جرواً صغيراً وهو مدرب تماماً على سكن البيوت. وكما كنت قلت للسيد دوبينز، لا يمكنني البقاء والعمل معكم إلا إذا كان معي الجواد والكلب.»

ورأت مانيلا النظرة الحادة التي رمق بها رئيس الخدم السيدة فرانكلين، وأدركت أن هذه الأخيرة قد أذعنت للأمر.

قالت لها: «حسناً جداً، يا آنسة تشينون. إذا أنت جئت معي، فسأجد لك غرفة.»

عند ذلك، تذكرت مانيلا أنها تركت حوائجها محزومة

إلى ظهر الجواد. فقالت تخاطب رئيس الخدم: «آسفة يا سيد دوبينز، ولكن هل لك بأن ترسل أحداً ليحضر لي حاجياتي المحزومة على سرج الجواد؟ وكذلك هناك حذاء في الجيوب.»

فقال الرجل: «سأقوم بذلك، يا آنسة تشينون وشكراً لك كثيراً لمساعدتنا في هذه الآونة الحرجة.» وألقى على السيدة فرانكلين نظرة حادة.

لقد كان واضحاً أنه كان يحذرها من أن تسيء إلى الآنسة تشينون وإلا وجدوا أنفسهم من دون طاهية.

وعندما ذهب، أدركت المرأة أن الحق مع رئيس الخدم، فقالت بصوت مختلف اللهجة: «أظن من الأفضل، يا آنسة تشينون، أن لا تضعك على السطح مع بقية المستخدمين حيث أن لديك كلباً. فقد يحملهم هذا على الغيرة. وأنا أشعر بالرعب إذ أفكر بأن علي أن أتحمل هرة هذا، وأرنب تلك، كما تمنت خادمة هنا، مرة، أن تحضر معها.»

فضحكت مانيلا: «إنني متفهمة تماماً، يا سيدة فرانكلين، إنك لا تحبين أن تنشئي معرضاً للوحوش في هذا المنزل الرائع الجمال. وفي نفس الوقت، لا أستطيع الإنفصال عن كلبي.»

فقالت مديرة المنزل: «لقد كان لدى سيادة الإيرل الراحل نفس الشعور. فقد كان كلبه يرافقه إلى كل مكان.»

فقالت مانيلا: «لا بد أنك تشعرين بالفخر البالغ بالماركيز. ومع أن موطني بعيد عن هنا تماماً، فقد كنت قرأت عن شجاعته في الحرب. وماذا قال صاحب السمو ولي العهد عنه عندما منحه لقب (الماركيز).»

فقالت السيدة فرانكلين: «إننا فخورون بسيادته. وقد كان في صغره ألطف ولد رأيته.»

وسارت في الممر إلى أن فتحت باباً في نهايته، ثم قالت: «هذه غرفة نادراً ما نستعملها، إلا إذا كانت كل الغرف الواسعة في هذا الطابق، مشغولة.»

كانت غرفة نوم تسرّ الناظرين، كما رأت مانيلا، ولكن كان واضحاً أنها معدة لشخص عازب.

لم يكن فيها منضدة للزينة وإنما مرآة فقط فوق طاولة ذي أدراج.

وكانت الخزانة المصنوعة من خشب السنديان مصنوعة لأجل رجل. ثم كان هناك ما بدا أنه سرير مريح هذا إلى نافذة واسعة تطل على واجهة المنزل الأمامية والبحيرة.

فقالت مانيلا: «هذه تناسبني تماماً. وشكراً لتفهمك لأمري.»

وشدت على الكلمة الأخيرة، فادركت مدبرة المنزل أنها تشير بذلك إلى فلاش.

قالت لها: «والآن، إذا أردت شيئاً فاطلبيه مني، وحالياً، أنا واثقة، من أنك تريدين رؤية المطبخ، حيث أن الوقت قد أصبح ضيقاً للقيام بالتجهيز قبل وصول سيادته.»

فخلعت مانيلا قبعتها الصغيرة ووضعتها على كرسي.

ثم قالت وهي تسوّي من شعرها الذهبي: «إنني جاهزة تماماً، وطبعاً أدرك أن أمامي عملاً كثيراً.» فاخذتها مدبرة المنزل إلى الطابق الأسفل.

مرتا بغرفة المؤونة، وكانت فسيحة تماماً.

وكانت تعلم أن على حارس خاص أن ينام فيها وذلك لحماية سلامة الأطعمة.

وفتحت مدبرة المنزل التي كانت تسير أمامها، باباً يقود إلى المطبخ.

كان، كما توقعته مانيلا، غرفة واسعة ذات سقف عال. وكانت هناك علاقات لتعليق الأطعمة. وتذكرت أنها كانت ترى هذه الأشياء عندما كانت صبية صغيرة.

وكان هناك لحم معلق، عدة بطات، عدد من الحمام، وبصل.

سارت نحو الموقد الضخم حيث كانت فتاة في حوالي السادسة عشرة تقف قربه تحرك شيئاً في مقلاة.

كما كانت فتاة أخرى تماثلها سناً، تعدّ البازلاء. فنظرت إليها الفتاتان بدهشة.

فقالت مدبرة المنزل: «إن بيتي وجين ستساعدانك يا آنسة تشينون. صحيح أنهما صغيرتان جداً، ولكن السيدة وايد كانت تدربهما على العمل حسب رغبتها. وكانت قد وجدت المرأة الأكبر سناً التي سبق وكانت عندنا، بطيئة جداً.»

فقالت مانيلا وهي تبتسم للفتاتين: «إنني واثقة من أنهما ستكونان عوناً كبيراً لي.»

وابتسمت لها الفتاتان بخجل.

قالت السيدة فرانكلين: «لا أدري ماذا أعدنا للغداء، ولكنني كنت اقترحت، قبل أن تسقط السيدة وايد مريضة، أنه بما أنه سيكون لدينا أنواع كثيرة من الطعام للعشاء، فمن الأفضل أن يكون الغداء خفيفاً.»

فقالت مانيلا: «أظن أن هذه فكرة جيدة جداً. ويمكنني أن أرى ثمة لحماً.» وأشارت إلى اللحم المعلق.

فأجابت مدبرة المنزل: «يجب أن يكون عندنا أكثر من هذا. ماذا حدث للدجاج الذي كنت تقلينه أمس، يا بيسي؟»

«إنه في غرفة المؤونة.»

«إذن، اذهبي واحضريه. احضريه يا فتاة. وكذلك أي شيء آخر بإمكان الآنسة تشينون أن تجهزه لنا.»

وما أن أسرعت بيسي مبتعدة، حتى تذكرت مانيلا كيف كان بيتها في حياة أمها.

قالت: «أظن أنك، والسيد دوبينز تتناولان غداءكما في غرفة تدبير المنزل، يا سيدة فرانكلين. كما أن الخادمات والحارس الخاص يأكلون في قاعة الخدم.»

فقالت مدبرة المنزل: «هذا صحيح.» وبدا في عينيها الإستحسان. فقد علمت الآن أن مانيلا تعرف نظام بيوت الأغنياء. وأضافت تقول: «وأنت، بالطبع، تتناولين طعامك معي أنا والسيد دوبينز.»

فقالت مانيلا: «إنني واثقة من أن الفتاتين قد سبق وجهزتا بعض الخضر، وبهذا يمكنني أن أرسل الغداء إلى غرفة تدبير المنزل بأسرع ما يمكن.»

فأجابت السيدة فرانكلين: «هذا عمل جيد منك، يا آنسة تشينون.» وخرجت من الغرفة وقد علا صوت حفيف ثوبها الحريري.

عند ذلك، التفتت مانيلا للفتاتين باسمة.

أقبلت بيسي وهي تحمل صينية تحوي طبقاً فيه دجاجة باردة، وشريحة كبيرة من لحم البقر على طبق آخر.

فقالت مانيلا: «إنني، شخصياً، جائعة، وأثناء إنهائي البازلاء التي كنتما تجهزانها، أكون شاكرة لك يا بيسي لو تقطعين لي شريحة من الدجاج هذا بينما تنزل جين ذلك اللحم المعلق.»

فأسرعت الفتاتان طائعتين، فأكلت شيئاً من الدجاج وهي تضع الخضر المطبوخة في الأطباق الصينية.

كما أنها ألقت ببعض القطع الصغيرة لفلاش.

وكانت تفكر في نفس الوقت، أن عليها أن تذهب إلى الاصطبل للإطمئنان على جوادها هيرون، مهما بلغ من انشغالها. وكانت واثقة من أنه سيكون في مربطه ماء وكذلك طعام حسن من الشوفان.

لقد كانت لا تستطيع أن تتصور أن الماركيز بالذات، يمكن أن يعثر على جياده.

أما ما كان يهمها الآن، قبل أي شيء آخر، هو أنه لا جوادها هيرون، ولا الكلب فلاش سيجوعان.

وقبل حلول المساء، كانت مانيلا قد أنهت تجهيز كل شيء للعشاء.

ولم تكن من الغباء بحيث تبدأ بصنع أنواع الطعام الفرنسية في لحظة وصولها.

ذلك أن عليها، أولاً، أن تحصل على مقوماته، وثانياً أن تعرف طريقها في هذا المطبخ.

ولم تذهب إلى غرفة مدبرة المنزل لتتناول غداءها. ولكنها تناولته وحدها في المطبخ بعد أن ذهبت الفتاتان إلى قاعة الخدم.

علمت مانيلا أن هناك ستة من الحراس، وخمسة خدم

بما فيهم الفتاتان اللتان تعملان معها في المطبخ.

وكان هناك رجل عجوز فهمت أنه يحضر الفحم والحطب.

وكانت قد أرسلت خبراً إلى السيدة فرانكلين تعلمها، وكذلك رئيس الخدم، بأن عملها الكثير يمنعها من الإنضمام إليهما للغداء.

وكانت قد أنهت غداءها الذي وجدته لذيذاً للغاية، نظراً لجوعها، عندما أقبل السيد دوبينز إلى المطبخ قائلاً لها: «لقد نسيت أن أخبرك، يا آنسة تشيتون، بأن الطاهية السيدة وايد كانت قد سبق وجهزت العشاء لهذه الليلة. وكتب سكرتير الماركيز قائمة الطعام.»

فأجابت مانيلا: «هذا ما أخبرتني به الفتاتان. وهكذا أنجزت أنا ما كانت السيدة وايد قد جهزته.»

وخيل إليها أنه تنهد بارتياح، وهو يقول: «لقد أنساني الشعور بالفوز حين أحضرتك، أن عليك أن تقابلي السيد واطسن، سكرتير الماركيز، قبل أن تبدأي بالعمل. إنه يريد أن يتحدث إليك الآن ليتكلم عن الراتب.»

فأجابت: «شكراً، ويمكنك أن تريني الطريق إلى مكتبه.»

فأخذها عبر ممرات لا نهاية لها، كما تصورت، وأخيراً وصلا إلى غرفة السكرتير في الناحية الأخرى من المنزل.

كان السيد واطسن رجلاً مسناً علمت من مجرى الحديث أنه كان قد خدم والد الماركيز منذ ورث اللقب.

وعندما قدمها إليه السيد دوبينز، حدق فيها بدهشة ثم قال: «هل أنت حقاً طاهية، يا آنسة تشيتون؟»

فأجابت: «نعم. وأنا أعلم أن تهذيبك منعك من القول إنني أبدو أصغر من أن أكون كذلك.»

فقال السكرتير: «هذا ما خطر ببالي، في الحقيقة.»

فقالت: «لا أظن أنني سأخيب ظنك. ولكن، لو حدث هذا فسأبقى هنا إلى أن تجدوا طاهية أخرى بدلاً مني.»

فقال السكرتير بشهامة: «أنا واثق من أن هذا لن يحدث.»

وخرج السيد دوبينز بينما جلست مانيلا على كرسي أمام مكتب السكرتير الذي بادرها بقوله: «والآن، عليّ أن أسألك عن الراتب الذي تطلبينه. كما انني مدرك تماماً أنك أنقذتنا من وضع صعب جداً، وذلك في اللحظة الأخيرة.»

فضحكت مانيلا، ثم قالت: «إذا كنت تظن أنني سأستغل ذلك، فهذا لن يحصل، يا سيد واطسن. فأنا سأقبل بمنتهى الشكر ما تحسبه أنت راتباً ملائماً.»

فأخبرها السيد واطسن بالراتب الذي كانت السيدة وايد تأخذه.

وقبلته مانيلا دون تردد، وهي تفكر في أنها إذا بقيت هنا عدة أسابيع، فسيمكنها أن تجمع مبلغاً يساعدها على متابعة طريقها دون أن تتعرض هيرون وفلاش للجوع.

وعندما نهضت عن كرسيها، مدّت يدها إلى السيد واطسن تودعه قائلة: «أشكرك كثيراً. قد تكون شاكراً لكوني ظهرت بشكل غير متوقع، في ظرفكما الصعب ذاك، ولكنني أنا أيضاً شاكرة لكم لأنني كنت أبحث عن عمل. ولم أكن واثقة من أنني سأجده بمثل هذه السرعة.»

فقال: «أرجو أن تكوني سعيدة هنا، يا آنسة تشيتون.»

وأسرعت مانيلا عائدة إلى المطبخ وهي تفكر في أن كل شيء يسير على ما يرام.

إنما بقي أمامها شيء واحد صعب، وهو أن تنال رضا الماركيز.

ولكنها ما لبثت أن أقنعت نفسها بأن من غير المحتمل أن تتصل به بشكل مباشر.

وأي انتقاد قد يوجهه نحو عملها سيكون بواسطة رئيس الخدم.

عند ذلك أخذت تجتهد في إعداد العشاء الذي سيكون خمسة أنواع متتابعة بدءاً بالحساء، وانتهاء بالحلوى.

وكانت تعرف كيف تطهو كل أنواع الطعام.

وكان الطعام الذي كانت الطاهية السيدة بيل تعده في بيتها، كان دوماً هو (الطعام المناسب) للوقت الحاضر، فقد كانت طاهية ممتازة.

وكانت مانيلا تشتهي أحياناً تلك الأنواع الفرنسية التي كانت جدتها علمتها كيف تطهوه. وعند ذلك، كانت تقصد المطبخ لتقول للسيدة بيل: «ليس لدي ما أعمله اليوم، فجئت لأساعدك.»

فترد عليها هذه بحدة: «لا تخدعيني بلسانك الحلو هذا، يا سيدتي، فأنت تريدين فقط أن تطهي ذلك الطعام الذي تحبينه. عليك أن تخجلي من نفسك وأنت تأكلينه بينما ذلك الرجل الشرير يقتل رجالنا.»

وكان هذا شيئاً اعتادت الطاهية أن تقوله دوماً، ولكنها لا تلبث أن تدعها تطهو ما تريد حتى أنها تعترف بمبلغ لذته عندما ينتهي صنعه.

وحدثت نفسها أنها، ستطهو لعشاء الغد، بعض الأنواع الفرنسية اللذيذة لسيادة الماركيز.

أما الأنواع الانكليزية المقررة لهذا العشاء، فقد قامت مانيلا بطهوها بشكل ممتاز تماماً كما كانت السيدة وايد تفعل.

وقد أخذ الطعام إلى المائدة رئيس الخدم، والخادم، المختص بذلك.

وعندما عاد السيد دوبينز، كان يبتسم وهو يقول: «إن سيادة الماركيز مستمتع بالطعام، وكذلك السيدة التي أحضرها معه.»

فسألته: «السيدة؟»

أجاب: «نعم، وهي فرنسية مثلك، سواء صدقت هذا أم لا.»

فسألته: «وما هو اسمها؟»

«إنها تدعى الكونتيس دوريري.» ولفظ إسمها بشكل شاذ ثم تابع قائلاً: «وهو يخاطبها باسم إيفيت.»

ودهشت مانيلا لاستضافة الماركيز لشخص فرنسي، ولكنها ما لبثت أن فكرت في أنه قد قابلها، دون شك، أثناء وجوده في جيش الإحتلال أثناء الحرب.

فسألته: «ومن هم الرجال الآخرون؟»

فأجاب: «واحد منهم يدعو نفسه الكونت، ويبدو أنه أخوها. إن إسمه صعب قليلاً، فويس كما أظن. أما الثاني فيخاطبونه فقط بكلمة السيد بالفرنسية أي مسيو.»

فسألته: «وهو أيضاً فرنسي؟»

فأجاب: «قال إنه من باريس. وهو رجل دميم الشكل، ولكن يبدو أنه يسلّي الماركيز.»

فقالت مانيلا: «حسناً، ما داموا راضين عن العشاء، فهذا هو المهم.»

فقال السيد دوبينز يطمئنها: «نعم، إنهم يتناولونه باستمتاع واضح، كما أنهم يستمعون باهتمام إلى كل كلمة يقولها سيادته، وخصوصاً الكونتيس.»

ولم تكن مانيلا مهتمة بشكل خاص بضيوف الماركيز، بل كانت تتساءل عما إذا كانت ستسنح لها فرصة مشاهدته. ولكنها ما لبثت أن تذكرت أن نافذة غرفتها تطل على واجهة المنزل الأمامية. وهكذا بإمكانها أن تراه وهو يمتطي صهوة حصانه أو يسوق عربته.

وكانت الآن تشعر بتعب بالغ. فهي لم تنم جيداً الليلة الماضية وهي تفكر في كيفية الهرب من عمها.

وهكذا أرسلت الفتاتين إلى فراشهما حالما انتهى تنظيم المطبخ.

وكانت صممت على اللحاق بهما في أسرع وقت ممكن.

ولكن كان عليها أن تخرج الكلب فلاش قليلاً، فخرجت به من الباب الخلفي.

وكانت تحدث نفسها بأن عليها أن تطوف غداً أنحاء القصر لكي ترى أمكنة كل شيء. أما الآن فيكفيها أن لديها فراشاً مريحاً تنام فيه دون أن تدفع أجراً.

وكان بالقرب من الباب الخلفي أجمة كثيفة يخترقها ممر مبلط بالحصى، وعندما اعتلى البدر قبة السماء، أصبحت الرؤية سهلة، فسارت في ذلك الممر إلى أن انتهى بها في الاصطبل.

وكانت تعلم أنها لا يمكن أن تنام دون أن ترى هيرون وتطمئن عليه.

وكان هناك صف طويل من الأبواب، ففتحت أولها. وعلى ضوء المصباح المعلق على الجدار، سرّها أن ترى أن مرابط الخيل مريحة فسيحة.

ومرت بعدة جياد قبل أن تصل إلى حيث كان هيرون مربوطاً.

ووضعت ذراعيها حول رقبته، فأخذ يحك أنفه بها. فقالت تخاطبه: «إننا في أمان، يا عزيزي. إننا هنا الآن، ولا أعتقد أن من الممكن لعمي هربرت أن يكتشف مكاننا.»

وشعرت بأن هيرون الذي طالما تحدثت إليه، بأنه يفهم ما تقوله.

أخذت تربت عليه وتحتضنه، ورأت أن علفه كان مكوّناً من أغلى أنواع الشوفان، كما كان هناك أيضاً دلو للشرب يحتوي مياهاً نظيفة.

وما لبثت أن عادت إلى المنزل يتبعها فلاش.

كان المطبخ غارقاً في الظلام، وكان الصوت الوحيد آتياً من ناحية غرفة المؤونة.

مرت من أمام الغرفة دون أن يلحظها أحد، ثم صعدت السلم الجانبي إلى الطابق الأول.

وكانت تعلم أن الضيوف سيشغلون جميعاً غرف الضيافة في هذا الطابق، والتي لم تكن قد رأتها بعد. وكانت كلها أمامها على طول الممر.

وعندما وصلت إلى غرفتها، تملكها شعور غامر بالأمان.

لقد كانت تعلم أن بإمكانها هذه الليلة أن ترقد دون أيّ شعور بالخوف.

أما فلاش فقد أراح نفسه بالإستلقاء على الأرض بجانب السرير.

وعندما بدلت مانيلا ثيابها، وربتت على رقبته، حدثت نفسها بأنها محظوظة تماماً.

وفي الصباح التالي، استيقظت مانيلا مجفلة، ولكنها ما لبثت أن تنهدت بارتياح عندما رأت أن الساعة الموضوعة على رف المدفأة تشير إلى السادسة فقط. ذلك أنها نسيت أن تخبر الخادمتين بأن توقظاها، فخافت أن يغلبها النوم.

وأسرعت تهبط السلم لتجهز طعام الإفطار. وفي المطبخ أخبروها بأن سيادة الماركيز يطلب الإفطار في الساعة الثامنة.

لقد أخبرها الخادم قائلاً: «إنه سيخرج بعد ذلك في نزهة ممتطياً جواده. ولكنه سيخرج غداً ثم يتناول إفطاره بعد ذلك.»

فقالت: «حسناً، يمكنني، بعد أن علمت بذلك، أن أجهز كل شيء.»

وكانت أثناء تجهيز طعام الإفطار، تفكر في أن تدبر وقتاً لتخرج للنزهة على ظهر هيرون. أما هذا النهار، كما حدثت نفسها، فمن الحكمة أن تدعه يرتاح بعد تعب يوم أمس.

ولكنه كان فتياً نشيطاً، ولا يلبث أن ينتابه الضيق إذا هي لم تخرجه للنزهة كالعادة.

ولكنها انتهت إلى أن عليها، في حالة خروج الماركيز للنزهة مبكراً، عليها أن تخرج مبكرة، هي الأخرى، أو أن تنسل خارجة بعد الظهر.

لقد كانت واثقة من أنه ما أن تنتهي فترة الغداء، حتى يرتاح الخدم إلى أن يحين أوان تناول الشاي.

فإذا هي جهزت الشطائر والكعك مسبقاً، فسيكون ذلك جاهزاً لأخذه من المطبخ إلى غرفة الطعام.

وحدثت نفسها، بحزم، أن عليها أن تنظم عملها جيداً. فمن الخطأ الجسيم أن تؤجل القيام بالعمل إلى آخر لحظة.

ومن ثم ركزت أفكارها في صنع الإفطار حيث جهزت ست أنواع أرسلتها إلى غرفة الطعام.

وضعت البيض والسمك والفطر والكبد الذي كانت السيدة وايد قد سبق وتركته جاهزاً في طبق فضي.

وفي آخر لحظة، تذكرت أنها نسيت الليلة الماضية أن تضع رغيف خبز في الفرن لكي يكون جاهزاً للصباح، فحدثت نفسها قائلة، إن عليهم أن يكتفوا بالخبز المحمص ولكن هذا شيء يجب أن لا أنساه بعد الآن.

وكان بإمكانها أن تلوم الفتاتين لعدم تذكيرهما لها ذلك. ولكنها كانت تعلم أنهما هما أيضاً حديثتا العهد بالخدمة في هذا القصر.

ومن الطبيعي أنهما لم تكونا تعلمان ما يريده أناس مثل أصدقاء الماركيز.

وعادت تحدث نفسها بأن عليها أن تتذكر تماماً كيف اعتادوا أن يقوموا بذلك في البيت.

وابتدأ الماضي يعود إلى ذهنها.

لقد أدركت كيف تدهورت أوضاع كثيرة في بيتهم بعد وفاة أمها.

حيث أن عمها هربرت قد أدخل، مشكوراً، الفقر إلى منزلهم ما جعل الرفاهية تختفي منه تدريجياً، لينسوها في النهاية تماماً.

وأثناء تناولها طعام الغداء، أخذت تفكر في ما ينبغي أن تقدمه للعشاء ذلك المساء.

وشعرت بسرور بالغ لدى تفكيرها بأن بإمكانها أن تطهو الأنواع الفرنسية التي كانت جدتها علمتها إياها وذلك دون أن تقلقها تكاليفها.

إن بإمكانها الآن أن تستعمل مختلف أنواع التوابل التي كانوا تجنبوها في بيتهم وذلك لغلاء ثمنها.

وأخيراً، تم تجهيزها لقائمة الطعام.

وعندما دخل البستانيون وحراس الصيد المطبخ حسب رغبتها، أخبرتهم بالضبط بما عليهم أن يحضروه.

فقالوا: «سنبذل جهدنا، يا آنسة، ولكن ذلك ليس سهلاً.»

فقالت باسمة: «أعلم ذلك. ولكن ليس منا من يمكنه أن يقدم للماركيز ما يستحقه، أليس كذلك؟»

فقالوا جميعاً: «إن الماركيز يستحق أفضل الأشياء.»

وما أن حان وقت تناول الشاي، حتى كان كل شيء جاهزاً.

وعندما علمت أن الماركيز وأصدقاءه جالسون في غرفة الجلوس بكل ارتياح، فكرت في أن تزيد من معلوماتها عن القصر وما حوله.

كما أنها علمت أيضاً أن المزيد من أصدقاء الماركيز سيصلون في اليوم التالي.

وقد بلغوا الخادمات أن عليهن أن يجهزن ثماني غرف نوم.

وكذلك سائسو الإصطبل أخذوا يتوقعون ثلاث أو أربع عربات عليهم أن يعدوا لها الإصطبلات.

وأخذت الخادمات في تجهيز الغرف للضيوف ولخدمهم الذين سيحضرونهم معهم.

وفي هذه الأثناء، رأت مانيلا أن بإمكانها أن تتسلل خارجة إلى نزهتها.

قررت أن تذهب أولاً إلى قاعة الموسيقى، ثم بعد ذلك إلى المكتبة.

وكانت قد تناولت طعام الغداء مع السيدة فرانكلين فعلمت كثرة الأشياء التي كان عليها أن تراها. فقد قالت لها مديرة المنزل: «إنك ستسرين برؤية اللوحات في قاعة المعرض، وأثناء تفرجك عليها، فكري في مبلغ الجهد الذي نبذله في تلميع الأرض. وهي مهمة صعبة حقاً.»

أما المسؤول عن المعرض، والذي كان رجلاً عجوزاً والذي كان يتناول هو أيضاً الغداء معهم، فقد أخبر مانيلا بأنه سيريها الكتب في المكتبة، قائلاً إن بعضها كان أول طبعة لها وثمينة للغاية.

رأت أن من غير المعتاد بالنسبة لمسؤول عن المعرض أن يتناول طعامه في غرفة مديرة المنزل. ولكنه قال إنه يشعر بالوحدة وبالحاجة إلى تبادل الحديث مع آخرين. أما السيد واطسن، حسب رأيه، فهو أكثر اهتماماً بالحسابات المالية.

وقد ضحكت مانيلا لهذا.

لكنها أدركت السبب الذي يجعل السيد واطسن يطلب أن يؤخذ له طعامه إلى المكتب على صينية.

وكان هذا شيئاً آخر عليها أن تجهزه.

ولأنها شعرت بالأسى لأجله، فقد حاولت أن تجعل طعامه يبدو شهياً قدر الإمكان. فكانت تزينه بشكل أقرب إلى الطريقة الفرنسية منه إلى الإنكليزية.

وقررت عدم زيارة المكتبة الآن لأنها أدركت أن المسؤول عن المعرض سيظل يتحدث إليها، ولن يدع لها مجالاً لزيارة بقية الغرف التي كانت تريد رؤيتها.

وهكذا، ذهبت أولاً إلى قاعة الموسيقى والتي كانت تخلب الألباب بالرسومات على الجدران والسقف.

أما القاعة الرياضية، والتي لم تستعمل منذ ما قبل الحرب، فقد كانت توحي بالرهبة في النفوس. فإذا ما أضيئت الثريات وملأت الأزهار المكان، فستصبح أكثر الغرف جمالاً.

وإذ كانوا قد أخبروها بأنه لا يوجد أحد في الجناح الشرقي للقصر، فقد أخذت تتساءل عما إذا كان وقتها يسمح باستكشاف ذلك الجزء من القصر.

ولكنها ما لبثت أن قررت أن تترك ذلك لوقت آخر. ولكنها، على كل حال، نظرت إلى ذلك الباب الضخم المصنوع من خشب السنديان والذي يفصله عن الجزء الحديث من القصر

عند ذلك رأت باباً آخر دفعها الفضول إلى فتحه.

ووجدته يقود إلى غرفة اجتماعات كبيرة.

ولأن مكانها بين الباب العتيق، والجزء الحديث من

القصر، فقد افترضت أنها كانت تماثل القصر في القدم.

كانت جميلة جداً في الحقيقة، بنوافذها الزجاجية الملونة ومقاعدها المنحوتة والتي كان واضحاً أنها صنعت من مئات السنين.

كان ثمة غطاء من قماش فوق الطاولة، ولكن لا أزهار على كلا جانبيها.

وكانت على وشك أن تشكر حظها لخلاصها مما كانت فيه، عندما سمعت أصواتاً تتحدث.

وشعرت بها تقترب من الباب، فنظرت حولها. ذلك أنها لم تشأ أن يراها الماركيز أو أصدقاؤه. كما أنها لم تكن تريد أن تفسر وضعها في المنزل. وكان إلى جانب نافذة باب افترضت أنه يقود إلى غرفة الملابس.

وهكذا سارعت إليه، وعندما دخلت رأت أنها كانت على صواب في تخمينها ذاك. ذلك أن هناك بعض الملابس كانت معلقة على الجدران.

وكان في وسط الغرفة منضدة وضع عليها بعض الكتب والملفات.

وضغطت الباب خلفها بشكل يقرب من الإغلاق.

وما أن فعلت ذلك حتى أدركت أن رجلين دخلا الغرفة وكانا يتحدثان بالفرنسية.

كانت واثقة من أنهما الكونت دوفويس الذي لم يستطع السيد دوبيتز النطق باسمه جيداً، والرجل الفرنسي الآخر.

كان أحدهما يقول: «هذا سيكون حسناً».

فأجابه الآخر: «كنت أعرف أن هذا رأيك. لقد أخبرت

السيد أنطون لكي يأتي سراً ويختبيء هنا إلى حين ظهورنا.»

فأجاب الرجل الآخر: «ليس من المحتمل أن يكون هناك من يفتش عنه. وقد تأكدت من سيادته أنه يقيم اجتماعاته الخاصة هنا لأجل المستخدمين يوم الآحاد فقط.»

فقال الرجل الآخر: سيكون السيد انطون هنا حالما ننتهي من طعام العشاء. والشخص الوحيد الذي علينا أن نراه الآن هو الطاهية.»

«أظنها امرأة بيتية أمضت سنوات طويلة في هذا القصر، ويمكنها أن تقوم بأيّ شيء مقابل جنيهات معدودات.»

«لا تنسى أن تكون جنيهات ذهبية.»

فكان الجواب: «لن أنسى طبعاً. فأنا لست بهذا الغباء. وأظن خمسة تكفي.»

«عليك أن تكون واثقاً تماماً من أنها ستفهم ما نقوم به.»

فأجاب الآخر: «يمكنك أن تثق بي. فإن لديّ أساليبي مع النسوة العجائز.»

فأضاف صديقه: «ومع الصبايا كذلك.»

وضحك الإثنان، ثم استدارا خارجين من الغرفة دون أن ينطقا بكلمة أخرى.

وسمعت مانيلا وقع خطواتهما تبتعد شيئاً فشيئاً. عند ذلك خرجت من مخبئها.

ووجدت صعوبة في تصديق ما سمعت.

فقد كان هناك شيء أثيم يحاك في الخفاء.

وحدثت نفسها بأنها لا تفهم شيئاً.

ثم تذكرت أن أحد الرجلين، وتوقعت أن يكون هو الكونت، كان سيذهب لرؤية (الطاهية).

وكان يظنها امرأة عجوزاً.

ولم تستطع أن تفهم السبب في رغبته في رؤيتها، ولكن كان واضحاً أنه شيء في غاية الأهمية.

وفكرت في أنها واثقة من شيء واحد فقط، وهو أنه سيذهل عند رؤيتها.

وكانت هذه فكرة مقلقة.

ولكنها ما لبثت أن أقنعت نفسها بأن ليس في إمكانها القيام بشيء.

الفصل الرابع

كانت مانيلا قد عادت لتوها إلى المطبخ، عندما جاءها أحد الخدم ليقول: «إن الكونت يريد أن يراك يا آنسة، إنه في غرفة الكتابة.»

فسألته: «وأين تكون تلك الغرفة؟»

فأجاب الخادم: «سآخذك إليها.»

وكان فتى على شيء من الوسامة، فابتسم لها ثم سار أمامها.

واجتازا غرفة المؤونة متجهين إلى القاعة حيث كان هناك باب في الناحية اليمنى من الممر.

فتح الخادم الباب، فرأت مانيلا غرفة كتابة صغيرة حسنة التأثيث وتحتوي على مكتبين.

وكان أحد الجدران مغطى بالكتب.

وكان واقفاً بانتظارها أحد الرجلين اللذين سمعتهما يتحدثان في غرفة الاجتماعات.

وما أن أغلق الخادم الباب خلفه، حتى أخذ الرجل يحدق فيها بحيرة، ثم قال بالإنكليزية: «لقد كنت طلبت الطاهية.»

فأجابته بالفرنسية: «إنني الطاهية يا سيدي الكونت.»

وابتسمت له متابعة: «لقد ولدت في فرنسا، ولكنني عشت طوال حياتي في انكلترا.»

فقال الكونت: «يا لها من مفاجأة، لقد كنت أتوقع طاهية انكليزية عملت مع الأسرة هنا على مدى سنوات، فأردت أن

أهنئها على الطعام الممتاز الذي قدمته لنا ليلة أمس.»

فقالت: «أظنك بصفتك فرنسياً، يا سيدي، ستستمتع بالوجبة التي سأقدمها هذه الليلة.»

فسألها: «أتعنين أنك ستقدمين لنا طعاماً فرنسياً؟»

فأجابت بالفرنسية: «نعم يا سيدي، وسيخيب أملي جداً إذا لم يعجبك الطعام.»

فقال الكونت: «بل سيعجبني حتماً، خصوصاً عندما أفكر في كل الجمال والفتنة التي تتحلى بها الطاهية التي صنعته.»

وأدركت مانيلا أنه يغازلها على الطريقة الفرنسية. فسكتت تنتظر آملة أن يدرك أنها على عجلة من أمرها.

وابتدأ الكونت يقول: «ما أريد أن أخبرك به، طبعاً بجانب إطرائك وإطراء طعامك، هو أنني وأصدقائي قد صممنا على مفاجأة صغيرة للسيد الماركيز.»

فمالت مانيلا برأسها ولكنها لم تقل شيئاً.

وتابع الرجل قائلاً: «أما ما ننوي عمله، فهو أن ندس له مادة تبعث على الفرح والحماس البالغين وهي مادة (جوا دو فيفر) والتي هي فرنسية كما تعلمين، ومعناها نعمة الحياة.»

وسكت، ثم أخرج من جيبه علبة يبدو أنها كانت أصلاً علبة خاتم، وكانت مطلية يعلوها زخرف.

أمسكها بيده وأخذ ينظر إليها متأملاً، ثم قال: «في هذه العلبة نبات مسحوق قد لا تكونين سمعت به يا آنسة حيث أنك صغيرة السن. إنه ينمو في جنوب فرنسا وقد وصل إلى باريس لتوه. إنه يبعث الراحة في جسد من يتناوله وكأنه يطير في الجو.»

فقالت مانيلا: «يبدو أن هذا شيء ممتع جداً. والحق معك، يا سيدي، فأنا لم أسمع به قط.»

فقال الكونت: «إذن فسترين مفعوله هذا المساء. إن ما أريده منك هو أن تضعي قليلاً. قليلاً جداً منه في طعام السيد الماركيز.»

وعبس قليلاً، ثم تابع يقول: «إنني لا أعرف ما سيكون العشاء، ولكنني واثق من أن بإمكانك أن تختاري نوعاً يقدم قبل نهاية الطعام. ضعي نصف ملعقة شاي فقط من هذا المسحوق.»

وفتح العلبة وهو يتكلم، فرأت مانيلا أنها مليئة بمسحوق أصفر.

«والآن، ها إنك فهمت جيداً أن هذا فقط لأجل الماركيز وإياك أن تبذريه عليّ أو على أحد من أصدقائي.»

فقالت: «لقد فهمت.»

فنظر الكونت حوله، ثم سألها: «أين يمكنني أن أضع المسحوق؟»

فمدت مانيلا يدها وأخذت العلبة، قائلة: «سآخذها يا سيدي الكونت. وكيلا تضيع أو يذوقها أحد، فسآخذ منها ملعقة شاي أضعه في درج أقفل عليه، ثم أعيد إليك العلبة.»

فقال الكونت باستحسان: «هذه فكرة جيدة.»

فقالت: «سأسرع إلى المطبخ وأقوم بهذا العمل الذي لن يأخذ من وقتي أكثر من دقيقة.»

وإذ رأت أنه سيعترض على ذلك، أسرعت خارجة قبل أن تنهي كلامها، مغلقة الباب خلفها.

وفي المطبخ، لم تجد أحداً. فتناولت كوباً أفرغت فيه محتويات العلبة، ثم وضعته في درج وأقفلته.

ثم عادت فملأت العلبة بدقيق أبيض، ثم أغلقتها وأسرعت بها عائدة إلى غرفة الكتابة.

كان الكونت ينتظرها عابساً وكان القلق يتملكه. وبادرها، حين دخلت، قائلاً بحدة: «يجب أن تكوني حذرة جداً. فلا تعطي سيادة الماركيز سوى نصف ملعقة، أو ملعقة قهوة، من هذه المادة.»

فأجابت: «لقد فهمت ذلك تماماً، يا سيدي. فأنا لم آخذ سوى هذا المقدار.»

«ثم يجب أن تكوني واثقة جداً من أن الخادم سيقدم طبق الماركيز إليه وليس إلى أحد آخر منا. فسيكون الأمر كارثة فيما لو ذهب الطبق إلى شخص آخر.»

فأجابت مانيلا: «فهمت هذا. وأعدك يا سيدي بأن لا يحدث أي خطأ.»

فقال الكونت وهو يضع العلبة في جيبه دون أن يفتحها: «إنني أثق بك. وهذا مبلغ لك يمكنك أن تشتري به ثوباً يزيد من جمالك.»

ووضع في يدها خمسة جنيهات ذهبية، فشكرته بكل احترام، قائلة بالفرنسية: «أشكرك جداً يا سيدي الكونت. إنك في غاية الكرم وأنا شاكرة جداً لك.»

«إنك تدركين أن من الخطأ الكبير أن يعلم أحد في المنزل بكرمي هذا.»

فقالت: «بالطبع يا سيدي.»

ثم سارت إلى الباب، وعادت تشكره قبل أن تتركه عائدة إلى المطبخ.

فتحت الدرج، ثم أخذت تتفحص محتويات الكوب.

كانت قد خطرت ببالها فكرة سرعان ما تبلورت.

وأخذت تستعد للعشاء قبل الوقت المعتاد. وذلك لتحقق ما أوصى إليها عمله تدخل الكونت.

وعندما أخبرت السيد دوبينز أنها ستقدم طعاماً فرنسياً، قال: «إن هذا شيء جديد علينا، ولكن ربما سيطلب سيادة الماركيز طعاماً مختلفاً حيث أنه أمضى سنوات في فرنسا.»

فابتسمت قائلة: «وهذا ما فكرت فيه، يا سيد دوبينز. وأنا أريد عونك في تيسير الأمور لي.»

فقال مازحاً: «إنني في خدمتك.»

فكتبت مانيلا قائمة الطعام، ثم أخذتها إلى السيد واطسن فسألها: «أهي أنواع فرنسية؟ ربما سيادته قد أصابه الملل منها.»

فأجابت: «لا يتملك أحداً الملل من الأشياء اللذيذة، وأنا أؤكد لك يا سيد واطسن أن المآكل الفرنسية هي لذيذة للغاية.»

فقال: «حسناً، لم تكن هناك شكوى بالنسبة لعشاء الليلة الماضية. وأنا لن أقول سوى أنك الطاهية الماهرة التي جاءتنا حين كنا في أمس الحاجة إليها.»

فقالت: «أشكرك جداً يا سيدي، ويعجبني أن أكون الطاهية الماهرة.» وسمعته يضحك وهي تغادر الغرفة عائدة إلى المطبخ.

وكانت قد اختارت طعاماً طالما صنعته لأبيها.

لقد ابتدأ الطعام بلحم بط لذيذ للغاية. وبعد ذلك جاء كوب مليء بحساء صاف ذهبي اللون كانت مانيلا تعلم أن كل جرعة منه هي الشهية بعينها.

وتلا ذلك لحم سمك السلمون، وكان الحارس قد اصطاده ذلك الصباح من النهر.

وكانوا قد أحضروا لها في نفس الوقت أربع فراخ صغيرة غضة.

ثم فكرت في أن يكون ثمة شيء مختلف عما تناولوه الليلة الماضية.

وركزت اهتمامها على الدجاج.

دعا دوبينز الحضور إلى العشاء الساعة الثامنة بالضبط وكان هذا الوقت متأخراً بالنسبة إلى أن الماركيز كان يتناول عشاءه، عادة، في الساعة السابعة والنصف. ولكن، نظراً لجمال الجو، فقد شاء الماركيز أن يتأخر في جولته بين الأراضي قدر إمكانه.

وكان، عند العصر قد امتطى حصاناً كان قد اشتراه منذ أسبوعين.

جلسوا جميعاً إلى المائدة التي كانت مزينة بزهور الأوركيد.

نظرت الكونتيس الى الماركيز ثم قالت: «يا عزيزي، لشد ما أنا مسرورة لكونك معنا وحدنا. وستتملكني الغيرة غداً عندما يصل بقية ضيوفك.»

فأجاب: «أرجو أن لا تظني أنني سأهملك.»

فقالت بلهجة ذات معنى: «لن أسمح لك بهذا أبداً.»

كان الماركيز قد قابلها في باريس، وأعجبه مبلغ ظرفها وخفة دمها.

إذ بعد متطلبات الحرب وضيقها، وجد أن باريس قد عادت إلى سابق عهدها.

فقد كان فيها كل النوادي والمطاعم والمسارح والسعادة التي يتمناها رجل.

وقد تمكن فيها من نسيان كل متاعب وآلام وتعاسة سنوات عديدة.

وقد حرصت إيفيت على أن يكون اهتمام الماركيز منصباً عليها وحدها دون أي شيء آخر.

لقد كانت موجودة معه كلما كان بعيداً عن جنوده. وكان يراها طريفة للغاية.

فقد حرصت بكل حنكتها وتجاربها، على أن تبقي البسمة على شفتيه.

كانت أرملة. وقد قتل زوجها الذي كان يقود فرقته في معركة «ليبزيغ» قبل هزيمة نابوليون الأولى ونفيه إلى جزيرة «ألبا» بسنة واحدة، وذلك في العام ١٨١٤.

وكانت إيفيت لا تفتأ تحدث الماركيز، مرة بعد مرة، أنها سليلة أسرة عريقة.

ولكن زوجها أرغم على أن يحارب مع نابوليون عندما تسلم هذا السلطة.

كانت تقول: «لو أن هنري ما زال حياً، لسرّه أن ينتصر الإنكليز، وأنت يا بطلي الشجاع واحد من جنودهم الكبار.»

وكان أخوها الكونت يؤكد كل ما تقوله. وكان يكرر مرة بعد أخرى، كيف نجوا من الموت على المقصلة. وقد صودرت كل أملاكهم خلال الثورة.

وكان يقول: «إن المكان المناسب للأرستقراطيين الآن هي انكلترا، وهي المكان الذي تتمنى العزيزة إيفيت أن

تعيش فيه.» ثم يلقي على الماركيز نظرة تغني عن الكلام تنبيء بأنه يتمنى ذلك.

وكان الماركيز ملاحقاً على الدوام، منذ انتهاء دراسته في كلية «إيتون»، بالنساء الطامحات في لقبه وفي الثروة والسلطة اللتين سيرثهما بعد وفاة والده.

وفي الواقع، بعد أن ورث لقب الإيرل، كان يحارب في البرتغال، وقد انصب اهتمامه على بقائه حياً، أكثر منه على التفكير في أملاكه في الوطن.

ولكنه، على كل حال، كان منتبهاً إلى أن بطاقات الدعوة قد ازداد ورودها إليه منذ تقلّد لقب ماركيز أوف باكينغدون.

وبدا غريباً عن رجل يملك كل هذا، أن يعترف بينه وبين نفسه، بأنه لم يقع في الغرام قط. وإنما هو الفضول والإفتتان أحياناً. ولكنه لم يغرم بامرأة قط إلى درجة يتمنى فيها أن تشاركه حياته.

وكانت إيفيت قد أعلنت في باريس بوضوح أنها تريد أن تكون كونتيس إنكليزية. والآن زادت على ذلك أنها تريد أن تكون الماركيزة أوف باكينغدون.

وفكر في أنها أصبحت الآن أكثر إصراراً على ذلك. وكان يحدث نفسه بأنه لن يعود إلى رؤيتها بعد عودته إلى إنكلترا.

لقد كان يتحدث، وأي رجل لا يفعل ذلك، عندما يكون بعيداً عن وطنه، عن منزله الذي يحبه وعن جياده التي كانت تعني له الكثير.

لقد فكّر في أن من اللياقة، فضلاً عن أي شيء آخر، في أن يدعوها هي وأخاها والرجل الذي يلازمهما على الدوام،

إلى زيارة لقصره. وقد قرر الآن أن تكون هذه هي أول وآخر زيارة لهم إلى قصره.

كان طبعاً شاكراً لهم كل ما قاموا به لأجله في باريس. ولكنه الآن وقد عاد إلى انكلترا، فهو يعلم أن عليه أن يركز اهتمامه على أسرته ويجري اتصالات مع أصدقائه الذين كان يعرفهم منذ الطفولة.

هذا إلى أن الطبقة الأرستقراطية كانت في انتظاره في لندن.

فقد كان وليّ العهد قد أوضح له أنه سيرحّب به في قصر كارلتون في أي وقت يحب أن ينزل فيه ضيفاً عليه.

وفي الليلة الماضية، كانت متطلبات إيفيت أكثر من المعتاد، وكان هو متعباً من رحلته الطويلة تلك من لندن. فصمم على أن يشتري لها هدية من الزمرد وسيكون في هذا النهاية.

كانت قد قالت له بلهجة مليئة بالحنان: «على الأقل يمكننا أن نحصل على شيء من الراحة قبل أن يصل أصدقاؤك للسهرة.»

فأجاب: «طبعاً سيكون هذا. وعليك أن تخبريني ماذا تريدين أن تقومي به، فما زال هناك كثير من الأشياء لم تريها، وجيادي تنتظر أوامرك.»

فابتسمت له ابتسامة ودودة.

وكان هو يعلم أن ما تريده لا يتضمن الجياد. ولكنه أصبح يدرك الآن أنها لا تتلاءم حقاً مع الريف الإنكليزي وكان من الأنسب لو كان أقام السهرة في بيته في لندن.

كان دوبينز والخادم يضعان أطباق الكبد المفروم أمام الضيوف.

ومد الماركيز يده يتناول قائمة الطعام، ثم قرأها وقال لإيفيت: «أرى أننا سنتناول الليلة عشاء فرنسياً، وهذا طبعاً هو إكراماً لك. وكل ما أرجوه هو أن أملك لن يخيب حيث أن الطاهية إنكليزية.»

فأجابت: «وكيف يخيب أملي في شيء في قصرك الرائع هذا.»

فذاق الماركيز الطعام، ثم قال: «هذا طعام ممتاز. لم أكن أعلم أن السيدة وايد يمكنها صنع طعام بمثل هذه الجودة.»

فقال الكونت: «كان عليّ أن أقول إننا أحضرناه معنا، ولكن هذا لم يخطر ببالي لسوء الحظ.»

وتلا الحساء سمك السلمون المطبوخ في مرقه. وأخذ الجميع يقولون إنهم لم يسبق أن تذوقوا طعاماً أطيب من هذا الطعام.

وكان العصير الطازج مدهشاً. ثم تقدم دوبينز من الماركيز يقول: «لقد طلبت مني الطاهية أن أخبرك يا سيدي أن من عادات هذه الناحية من البلاد، أنه عندما يعود رجل من الحرب أن يقدم إليه طبق حمامة السلام.» وأخذ نفساً عميقاً ثم تابع يقول: «إن هذا يمنحه الحظ في أن لا يعود إلى الحرب. وقد طلبت الطاهية أن تأكله وحدك. فهذه هي العادة، وأن لا تشارك به أحداً.»

فاستمع الماركيز إليه، ثم ضحك قائلاً: «هذه خرافة لم أسمعها من قبل. وطبعاً سأفعل ما تقوله الطاهية. ولكنني لا أرى إسم طبق (حمامة السلام) في قائمة الطعام.»

فأجاب دوبينز: «كلا يا سيدي. ولكن هناك فرخة صغيرة لكل من الآخرين.»

ووضع الخادم فرخة صغيرة في طبق كل واحد من الضيوف. وكانت مطهوة ببهارات خاصة ومرقة الفطر وذلك بطريقة لذيذة للغاية.

وذاق الماركيز طبق «حمامة السلام» هذا، ووجده فائق اللذة لا عيب فيه.

وساد الصمت أثناء تناول كل فرد فيهم طعامه.

وفجأة أخذ المسيو غريف الذي كان جالساً قبالة الماركيز، يهمهم، ثم رفع يديه وكأنه يحمي نفسه، وما لبث أن انكفأ إلى الأمام بوجهه على طبق الطعام، حدق فيه الماركيز بدهشة، مفكراً في أنه لا بد مريض.

ثم، وقبل أن يقول أو يفعل شيئاً، سقطت إيفيت بدورها إلى الخلف في كرسيها، وما لبثت أن انهارت إلى الأرض.

ودفع الماركيز بكرسيه إلى الخلف وهو يرى الكونت يسقط هو أيضاً وقد تصاعد صوت تحطم الكوب الذي أفلت من يده.

ووقف الماركيز يحدق في ضيوفه لحظة دون أن يستطيع الكلام.

وعندما أقبل دوبينز إليه، قال له: «ماذا يعني كل هذا؟ استدع الطاهية. لا بد أن الأمر يتعلق بالطعام.»

واجتاز دوبينز الغرفة لينفذ أمره، بينما بقي الخادم واقفاً ينتظر أوامر الماركيز.

وكانت مانيلا، في الواقع، تنتظر خارج غرفة الطعام. لقد كانت خائفة من أن الماركيز قد يأكل إحدى الفراخ بدلاً من الحمامة التي جهزتها له خصيصاً.

فكانت تختلس النظر إلى الغرفة لكي تسرع لإنقاذه إذا اقتضى الأمر.

وكانت قد وضعت كل المسحوق الذي أعطي لها، في مرقة الفراخ تلك.

ولم يكن دوبينز بحاجة إلى التحدث إليها. إذ ما أن وصل إلى الباب، حتى كانت هي تندفع داخلة إلى حيث كان الماركيز واقفاً على رأس المائدة.

وما أن واجهته حتى نظر إليها بدهشة، ثم هتف قائلاً: «ولكنك لست السيدة وايد.»

فقالت مانيلا بهدوء: «لقد كانت السيدة وايد قد سقطت مريضة، فجئت أنا بدلاً منها.»

فأشار إلى ضيوفه المتهاوين حوله، قائلاً: «إذن، فأنت مسؤولة عن هذا؟»

أجابت: «لقد تناولوا العقار الذي كنت أنت مقصوداً به، والذي يبدو أنه نوع من أنواع المهدئات.»

«أنا؟»

«لقد أعطاني السيد الكونت خمسة جنيهات ذهبية لكي أضع نصف ملعقة شاي من هذا المسحوق في طعامك.»

فهتف قائلاً: «أنا لا أصدق ذلك. وما الذي يدفعهم إلى مثل هذا العمل؟»

فأجابت: «أظن أنك ستجد تفسير ذلك في غرفة الاجتماعات.»

فنظر إليها، فأدركت أنه لم يفهم. فقالت: «لقد كنت سمعتهما يتحدثان عن سيد سيكون في الإنتظار هناك بعد العشاء.»

ورأت مما بدا على وجه الماركيز من غضب جارف، أنه فهم أخيراً. فقد بدت في عينيه نظرة قاسية، كما توترت

شفتاه. ثم قال بصوت هادىء: «إذن، يبدو أن عليَّ أن أشكرك لإنقاذي.»

فقالت: «إن أياً من الإنكليز المعجبين بك، وهم كثيرون، كانوا سيفعلون ما فعلته أنا.»

وشددت النطق على كلمة (الإنكليز) عالمة أن الماركيز سيعتبر ذلك توبيخاً له.

وبدا التفكير على وجهه لحظة. ثم قال: «سنتحدث في هذا فيما بعد. والآن علينا أن نتخلص من كل هؤلاء الرعاع.»

وأدركت مانيلا أنه يصرفها من أمامه.

فتراجعت بخفة. وعندما وصلت إلى الباب، سمعته يعطي أوامره لدوبينز بحدة وكأنه في ساحة القتال.

لقد أدت الفراخ، على كل حال، مهمتها كأحسن ما يمكن.

وكانت قد قرأت عن «المهدىء» بأنواعه المختلفة. وكانت من الذكاء بحيث أدركت أن الكونت سيعطي منه للماركيز فقط ما يمكن أن يشلّ قدرته على السيطرة على إرادته.

وبعد ذلك يأخذونه من غرفة الطعام إلى غرفة الاجتماعات. وهناك سيذعن دون أدنى اعتراض إلى طلب إيقيت الزواج منه.

وسيعقد زواجهما السيد انطون، الذي بدا أنه رجل دين، والذي سيكون بالإنتظار. ومن ثم لن يكون له خلاص.

وحدثت مانيلا نفسها ظافرة: «ولكنني أنقذته. وهو سيدرك الآن أنه لا ينبغي أن يثق بعد الآن بالفرنسيين، لا في الحرب ولا في السلم.»

وكانت تعلم أنها، بهذا التفكير، إنما تبدو غير مخلصة لجدتها.

ولكن نابوليون قد غير وجه فرنسا الحقيقي.

فهي الآن بلاد مختلفة تماماً عما كانت عليه فيما مضى.

وكان المستخدمون جميعاً قد سبق وتناولوا عشاءهم. وذلك عند الساعة السادسة، وهو الوقت المعتاد لهم.

وهكذا لم يبق أمام مانيلا ما تقوم به، سوى انتظار استدعاء الماركيز لها.

وجلست إلى مائدة المطبخ، وأخذت تقرأ كتاباً.

وكان قد مضى أكثر من ثلاثة أرباع الساعة، عندما عاد دوبينز إلى المطبخ، قائلاً: «إن سيادة الماركيز يريد أن يراك في مكتبه يا آنسة تشيتون. ثم إنك لم تسمعي بما حدث.»

فسألته: «وماذا حدث؟»

«لقد أمر سيادته بإحضار عربة المسيو غريف، التي جاء فيها، ثم وضع فيها الثلاثة وهم مستغرقون في النوم. والقيت أمتعتهم خلفهم، ثم طلب من الحوذي أن يعيدهم إلى لندن أو إلى أبعد منطقة يستطيعها.»

وأطلق السيد دوبينز ضحكة عالية ثم تابع: «لم يكن الحوذي مسروراً وهو يسير في هذا الليل والثلاثة خلفه أشبه بعلبة سردين.»

فسألته: «ألم يستيقظوا... من غيبوبتهم؟»

تلك أنها لم تكن تريد أن تقتل أحداً.

«إنهم لم يدركوا ما حدث لهم، ولكنهم ما زالوا أحياء، وكان غطيط الكونت يتصاعد وكأنه دب في حديقة الحيوانات.»

فقالت: «أظنهم سيعانون غداً من الصداع.»

فأجاب: «وهذا ما أظنه أنا أيضاً، وهم يستحقون ذلك. كيف يتجرأون على أذية الماركيز؟ لقد سبق وقلت لك من قبل، وأقولها الآن، وهو أن ليس بإمكانك الثقة قط بهؤلاء الضفادع.»

وأدرك فجأة إلى من كان يتحدث، فسارع يقول: «ولكنك أنت مختلفة عنهم، يا آنسة، كما نعلم جميعاً. إنني أراك انكليزية أكثر منك فرنسية. هذه هي الحقيقة.»

فقالت: «سأعتبر ذلك إطراء لي، يا سيد دوبينز. وأنا شاكرة جداً. والآن عليّ أن أذهب إلى سيادته.»

وخرجت من المطبخ، ثم سارت نحو المكتب.

وكانت تعرف مكانه، وعندما وصلت إلى القاعة، ركض أحد الخدم وفتح لها الباب.

عندما دخلت، رأت غرفة في منتهى الروعة وكانت تزين الجدران صور كثيرة لجياد بجانب مروج خضراء وهو اللون المفضل للرسام الشهير روبرت آدامز.

كان الماركيز واقفاً أمام المدفأة التي كانت مليئة الآن بالنباتات المزهرة حيث أن الوقت كان صيفاً.

واستقرت عيناه على مانيلا وهي تدخل متجهة إليه. وعندما وصلت أمامه، ألقت بالتحية عليه.

قال: «إجلسي يا آنسة تشينون حيث أخبروني أن هذا هو اسمك. كما سمعت أيضاً أنك فرنسية.»

فأجابت: «لقد كنت أخبرت السيد دوبينز أن أبوي كانا فرنسيين مهاجرين من قبل الثورة مباشرة. ولكن الحقيقة هي أن جدي لأبي كان انكليزياً، رغم أن زوجته، جدتي، كانت فرنسية.

وهكذا كان أبي نصف فرنسي، أما أنا فربعي فرنسي، فقط.»

فضحك الماركيز مما أزال التوتر من الجو.

وقال: «ولكنك تطبخين كالنساء الفرنسيات. وقد استمتعت بكل لقمة من الطعام الذي قدم إليّ» وجذب نفساً عميقاً، ثم قال: «لماذا لم تحذريني مما كانوا يكيدون لي؟»

أجابت: «لم تكن لديّ فكرة عن نتيجة تناول هذا المسحوق. فقد قال لي الكونت انه سيمنحك بهجة ونشاطاً هما مفقودين غالباً في انكلترا.»

فقال الماركيز: «أما ما لم يقله، فهو أن هذا المسحوق يسلب السيطرة على الإرادة. وقد سبق وأخبرتني أنت السبب الذي دعاهم لهذا العمل.»

فسألته بفضول: «وماذا فعلتم... بالنسبة إلى ذلك السيد؟»

فأجاب: «لقد حذرته من أنه إذا عاد ووطأت قدماه أرضي مرة أخرى، فسأقبض عليه بتهمة التآمر، ولم أر في حياتي قط رجلاً أسرع منه في الركض.»

ضحكت مانيلا وقالت: «لقد سبق وعلمت.. كيف تخلصت من أصدقائك أولئك.»

«وهذا يجعلني مليئاً بالشكر العميق لك. أخبريني يا آنسة تشينون، كيف يتسنى لي أن أوفيك حقك من الشكر؟»

فأجابت: «إنني أنا الشاكرة لكم، في الواقع، لأنني كنت محظوظة جداً. فقد كنت أبحث عن عمل، عندما سمعت أن طاهيتكم قد سقطت مريضة، ثم سمح لي بأن أحضر معي جوادي وكذلك كلبي كما ترى.»

ذلك أن فلاش كان يسير خلفها عندما تركت المطبخ وجاءت إلى المكتب، وكان الآن مستلقياً عند قدميها بهدوء.

فقال الماركيز: «إذا كان منظر جوادك بجمال منظر كلبك هذا، فيسرني أن أراه.»

فقالت: «إنني أحب هيرون كما أحب فلاش. وأنا شاكرة جداً جداً حيث كان بإمكاننا أن نمكث هنا حيث... لا أحد يعثر... علينا.»

كان كلامها قد سبقها دون تفكير، فقال الماركيز بسرعة: «إذن، فأنت هاربة؟ أظن هذا هو السبب في شعوري بالسرور معك.»

فاعترفت قائلة: «نعم... إنني هاربة. ولكنني لا أريد الحديث في هذا الموضوع.»

فقال: «سنتحدث إذن في شيء آخر. أخبريني ما رأيك في قصري؟»

أجابت: «لا شك أنك تعلم الجواب. إنه رائع، وهو مناسب لك تماماً.»

فقال غامزاً بعينه: «ها أنت ذي الآن تمدحينني.»

قالت: «وكيف يمكنني أن أقول شيئاً آخر عنك أنت الذي حاربت بكل شهامة وشجاعة تحت قيادة الدوق أوف ويلنغتون، وكوفئت لخدماتك الباهرة؟»

سألها: «وذلك بأن أصبحت ماركيز؟ أظن أنني أكثر زهواً بكوني الإيرل الحادي عشر وهو لقب أجدادي.»

فقالت: «إذا شئت مداومة الصعود، فالخطوة التالية هي (الدوقية).»

فأجاب: «هذا شيء لا رغبة لي به، في الواقع. فقد نلت

الكفاية من الحرب. أريد أن أنام في سريري في منزلي وأجول في أرضي.»

قالت باسمة: «إذن، فهذا بالضبط ما يمكنك عمله الآن.»

مرت لحظة صمت أدركت هي أثناءها أن الماركيز ينظر إليها بطريقة جعلتها تشعر بالخجل.

ثم قال فجأة: «أريد أن أرى جوادك. وأنا واثق من أنه شيء غير عادي مثل سيدته وكلبها. هل تذهبين معي في نزهة على ظهر الخيل غداً صباحاً؟»

فأجابت: «هذا يسرني جداً. فقد كنت أفكر منذ فترة في أنك ما بت تذهب للنزهة باكراً، يتوجب عليّ أن أبكّر في نزهتي قبلك كي لا أعترض طريقك.»

فقال: «هذا لن يحدث إذا كنا ذاهبين معاً.»

وسادت برهة صمت أخذ الإثنان، أثناءها، يتبادلان النظرات. وتملك مانيلا شعور غريب بأنهما كانا يتكلمان معاً دون أن ينطقا بكلمة.

ثم قال المركيز بشكل مفاجيء: «لقد أرسلت خدماً ليخبروا أصدقائي الذين كنت دعوتهم للقدوم غداً، أنني لسوء الحظ لن أكون هنا لاستقبالهم.»

فهتفت قائلة: «هل فعلت ذلك؟ ولكن لماذا؟»

فأجاب: «لأن ما حدث هذه الليلة هي قصة من الغرابة بحيث لا يمكن أن تبقى طيّ الكتمان مهما بلغ بنا الحذر، وسيكررها كل من يسمعها.»

فتمتمت: «آه، نعم... بالطبع. لم يخطر هذا ببالي.»

«ولا أظن أن أولئك الفرنسيين الذين طردتهم لتوّي، سيتحدثون، ولكنك لا تستطيعين منع الخدم من الثرثرة.

والأصدقاء الذين كنت دعوتهم إلى هنا، سيحضرون معهم خدمهم وخادمات زوجاتهم وسائقيهم. وستنتقل القصة معهم إلى لندن. لا مناص من ذلك.»

فقالت: «إنك بالغ الحكمة، فمن الخطأ أن يتحدث أحد بما... بما حدث.»

وخطر ببالها، وهي ترتجف، أن عمها قد يسمع بذلك. فإذا هو علم بأن طاهية جميلة صغيرة السن تملك جواداً وكلباً، قد أنقذت حياة الماركيز، فلن يأخذ منه وقتاً طويلاً كي يدرك كل شيء.

وارتجفت مرة أخرى، فقال الماركيز: «إنك خائفة. من هو الذي يخيفك، ولماذا؟»

فأبدت إشارة صغيرة من يدها وهي تقول: «كما سبق وأخبرت سيادتك، أنا لا أحب الخوض في هذا الحديث.»

فقال: «قد يكون في إمكاني مساعدتك. فأنا، في العادة، صالح جداً في تسوية المشكلات، وقد صادفني الكثير منها أثناء الحرب. لماذا لا تثقين بي وترين ان كان بإمكاني محو الخوف من عينيك؟»

وهزها لطفه، فنظرت إليه شاكرة، ثم قالت: «أظنني حالياً... في أمان... ولكن، إذا تغيّر الأمر، فسأخبرك.»

فسألها: «أهذا وعد؟»

وساورها شعور غريب بأنها، ما دامت وعدته بما طلب منها، فسيكون من الصعب أن لا تلجأ إليه إذا ما وقعت في المتاعب.

الفصل الخامس

وجدت مانيلا الإستسلام للنوم، صعباً.

ولم يكن هذا غريباً بالنسبة لما حدث هذا المساء وبقيت تفكر في ذلك الأمر. وكذلك في الماركيز.

كم كان لطيفاً متفهماً وهو يقول لها، عندما نهضت وقالت له تصبح على خير: «ماذا عن نزهتنا؟ هل تناسبك الساعة السابعة أم أن هذا الوقت مبكر بالنسبة إليك؟»

فقالت: «إنه ليس مبكراً. ولكن عليّ أن أجهز لك طعام الفطور.»

فضحك الماركيز قائلاً: «إذا كان عليّ أن أنتظر عدة دقائق بعد رجوعنا، فسأصفح عنك طبعاً.»

وسارت مانيلا إلى الباب، ولكن الماريكز سبقها إليه، وهو يقول: «لا يمكن أن أدعك تذهبين دون أن أشكرك مرة أخرى لإنقاذك لي من خطر لم أكن أتوقعه.»

فسألته: «وكيف بإمكانك أن تتصور أن يقوم أحد بعمل أثيم كهذا؟»

فقال: «كنت دوماً فخوراً بتقدمي خطوة على العدو، واستعمالي لقوة الملاحظة. أما هذه الليلة، فقد فشلت في هذين الأمرين وذلك بشكل محزن، وهكذا أشكرك مرة أخرى فأنت لا تدرين مبلغ عرفان الجميل الذي أشعر به نحوك.»

فتملكها الخجل، وابتعدت عنه. وعندما أصبحت خارج المكتب، ركضت نحو القاعة. وكان هناك حارس واحد

يراود عينيه النعاس، جالساً على كرسي. ولكنه لم يتحرك حين رآها.

صعدت السلم وفلاش في أثرها، ثم دخلت غرفة نومها. عند ذلك شعرت نفسها تتحرر من ذلك الخوف الذي تملكها منذ هربت من عمها.

مشت نحو النافذة وأزاحت الستائر.

كان ضوء البدر يتألق في البحيرة والنجوم تلتمع في قبة السماء. ولم تستطع أن تفهم السبب في هذا الشعور المفاجيء بالسعادة والإثارة، الذي تملكها.

* * *

وصلت مانيلا إلى الإصطبل في الساعة السابعة إلا خمس دقائق.

ولم تدهش حين رأت الماركيز قد سبقها إلى هناك. كان يختار الحصان الذي سيمتطيه، وقد أمر بأن يسرج لها حصانها هيرون.

وبعد دقائق، وكانا قد ابتعدا عن الإصطبل، قال: «لقد أعجبني ذوقك في الخيل كما أعجبني طعامك.»

فأجابت: «إن مديحك هذا لهيرون له اعتبار خاص حيث أنك تملك العديد من الجياد.»

فقال: «أنوي أن يكون لي أكثر من ذلك. إنني سأستقدم حصاني من فرنسا لكي يمضي بقية حياته في أمن.»

وفكرت مانيلا في أنه كما كانت توقعت، يحب جياده التي خدمته، ويحرص على أن تمضي حياتها سعيدة.

كانت تعلم أن هذا شيء لا يمكن لعمها أن يفكر فيه مطلقاً.

فالجياد التي تركتها في المنزل ستباع أو تعدم حالما يتسنى له استبدالها بسواها.

وقال لها الماركيز فجأة: «إنك لا تبدين سعيدة. لماذا؟»

فارغمت نفسها على الإبتسام وقالت: «إنني كنت أفكر كيف أن كثيراً من الجياد، بعد أن خدمت أسيادها طويلاً، تعطى إلى اللحام، أو تترك لتموت جوعاً.»

فقال: «لا يمكننا تغيير العالم بين ليلة وضحاها. ولكن يمكننا المحاولة، على الأقل، كل منا قدر امكانه.»

وكان هذا ما كانت تتوقع منه أن يجيبها.

وعندما ابتسمت له، قال: «سوف أتسابق معك. أو فلنقل إن جوادي تمبست سيتحدى جوادك هيرون.»

كانا قد وصلا إلى أرض ممهدة، ومع أن مانيلا حاولت جهدها أن تسبقه، فقد كان عندما وصلا إلى النهاية، يسبقها بمسافة بعيدة.

واستطاعت أن تقول لاهثة: «لقد انتصرت علي.»

فأجاب: «وأنت أفضل فارسة رأيتها. إياك أن تقولي لأنك فرنسية، فهذا بسبب دمك الإنكليزي.»

فضحكت قائلة: «أنا أقبل هذا، يا سيدي، وشكراً لإطرائك.»

فقال: «إنما أنا أقول الحقيقة. وطبعاً، يتملكني الفضول حين أراك تسعين لكسب عيشك بينما تقتنين مثل هذا الجواد النفيس.»

فقالت: «لقد سبق وأخبرتك بأن هذا سر. وقد حدث أن كنت في حانوت القرية، عندما اندفع رئيس خدمك داخلاً يتملكه الذعر لأن طاهيكم سقطت مريضة، وكان يخشى عليك من الجوع.»

فضحك الماركيز، وقال: «لا شك أن دوبيتز ظن نفسه حالماً عندما قلت له إن بإمكانك أن تطهي الطعام.»

سكت، ونظر إليها، ثم عاد يقول: «وأنا، طبعاً، أحلم. لأن من غير المعقول أن أية امرأة تبدو مثلك، وتطهو مثلك، وتركب الخيل مثلك، ومع هذا هي من عامة الشعب.»

فقالت: «إنك إذا تابعت إسماعي مثل هذا الكلام الجميل، ستبعث في نفسي الغرور. وأنا أعلم أن تمبست وهيرون يريدانك أن ترى كيف بإمكانهما أن يقفزا.»

وتقدمها الماركيز إلى حيث كانت أسيجة منخفضة تفصل الحقول عن بعضها البعض.

كان الجوادان يقفزان فوقها دون جهد، وقال: «هناك حلبة لسباق الخيل في أرضي، وقد أهملت منذ زمن، ولكنني سآمر بإصلاحها للعودة إلى استعمالها. عند ذلك سترى إن كان هيرون سيفوز بالقفز، على تمبست، ويخيل إليّ أن بإمكانه ذلك.»

فقالت بحماس: «سيكون هذا شيئاً مثيراً بالنسبة إليه.»

فقال: «إن ذلك سيمثل عائقاً أمام تمبست خالياً من العدالة.»

وضحكا كثيراً قبل أن يعودا إلى القصر.

وعندما لاح أمامهما الإصطبل، قال الماركيز: «من الصعب أن أصف لك مبلغ استمتاعي بنزهتنا هذه. ما الذي ستفعلينه بقية النهار؟»

فأجابت: «لم أفكر في ذلك كثيراً. هل ستكون وحدك، بعد أن الغيت زيارة أصدقائك لك؟»

فقال: «كنت أرجو أن أمضي وقتي معك. لدي فكرة أرجو أن توافقيني عليها.»

فنظرت إليه من تحت أهدابها، وقالت: «هل هذا أمر، أم طلب؟»

فأجاب: «إنني دوماً أحب الأمور كما أشتهي.»

ثم أخبرها أن أراضيه تطل على منظر ممتع تماماً وذلك من مكان خاص هناك معروف بأن الشخص يمكنه منه، بمساعدة منظار مقرب، أن يرى خمس مقاطعات، وأضاف قائلاً: «أظن أن ذهابك إلى هناك سيبعث التسلية في نفسك، وعلينا إما أن نبدأ رحلتنا قبل الغداء أو نأخذه معنا إذا كنت ملزمة بإعداده أولاً.»

فلمعت عيناها لهذه الفكرة. ثم قالت بشيء من التردد: «ولكن، ألا تفكر في المستخدمين... وهم يرونك... تتنزه مع... طاهيتك؟ سيذهلهم هذا؟»

فقال: «إذا حدث هذا، فما عليّ سوى الصبر على ذلك. ولكنني أشعر بأن دوبيتز والسيدة فرانكلين التي كانت مربيتي عندما كنت طفلاً، سيتفهمان أنني، بعد عودتي من الحرب، بحاجة إلى مشاركة شخص ما الحماس لعودتي إلى موطني... ولماذا لا يكون هذا الشخص هو أنت؟»

فقالت تغيظه: «هذا عذر غير مقبول. فسيادتك تعلم، كما أعلم أنا، أن الخدم يثرثرون.»

فقال: «إنهم سيثرثرون على كل حال، وكذلك سكان القرية، بالنسبة إلى حيازتي مثل هذه الطاهية الجميلة الماهرة. والتي يجري في عروقها أيضاً دم فرنسي.»

فقالت: «من المفروض أن تكون هذه شتيمة لا مديحاً.»

«حيث أنني أقول ان أتناول هذه الليلة المزيد من طعامك الفرنسي، فهذه تعد ميزة لك.»

وعندما وصلا إلى الإصطبل، شكرته مانيلا بأدب، ثم أسرعت إلى القصر من خلال باب المطبخ.

وتملكها الإرتياح وهي ترى أن الخادمتين بيسي وجين قد سبق وأعدتا بعض أنواع الطعام.

وضعت سترة الركوب والقبعة على كرسي، ثم أخذت تطهو الطعام بسرعة. وعندما دخل دوبيتز ليخبرها بأن سيادته في غرفة الطعام، كانت قد جهزت ثلاثة أنواع من المأكولات.

فقالت له: «أطلب منه أن يبتدىء بهذه، يا سيد دوبيتز. وعندما ينتهي منها، أكون أنا قد أنهيت طهو الكبد والسمك.»

ولم يقل دوبيتز شيئاً. وساورها شعور بأنه يفكر في أن عالمه قد انقلب رأساً على عقب. ولن يدهشه، بعد الآن شيء.

كل شخص كان يتحدث عما حدث في الليلة الماضية. وهكذا لم يلاحظ أحد عندما أرسلت مانيلا سلة كبيرة ذات غطاء، إلى الإصطبل. وكانت هنالك سلة أصغر تحتوي على ماء وعصير فاكهة، وقهوة.

وكانت قد صعدت إلى غرفتها، بعد الإفطار، حيث خلعت ملابس الركوب، وارتدت بدلاً منها ثوباً خفيفاً مما أحضرته معها على ظهر الجواد.

كانت الصعوبة الوحيدة هي أنها، حين أحضرت أثوابها الثلاثة معها، نسيت أن تحضر ما يناسبها من قبعات.

وكانت تتساءل عما عسى أن تفعل، عندما دخلت عليها السيدة فرانكلين مدبرة المنزل.

قالت: «سمعت أن سيادته يتفقد الأراضي. وأنك ذاهبة معه لإعطائه غداءه.»

فأجابت مانيلا: «هذا ما طلب مني القيام به.» ودهشت حين أجابتها السيدة فرانكلين: «وهذا عمل صائب أيضاً. فالطعام الذي يقدمونه في المقهى حولنا هو شيء لا يصلح للتقديم إلى سيادته. وأنا واثقة من أنك جهزت له وجبة جيدة.»

فأجابت مانيلا: «لقد حاولت ذلك بكل تأكيد.»

فتابعت المرأة قائلة: «حسناً، كل ما بإمكاني قوله هو ان أولئك الذي حاولوا الاحتيال على سيادته الليلة الماضية ما كان ينبغي أن يسمح لهم بتذوق الطعام الجيد الذي قدمته إليهم. فهو قد ذهب سدى على جرذان مثلهم.»

فقالت مانيلا: «معك حق. ولكن تذكري أن سيادته قد استمتع بأنواع الطعام الخمسة. وهذا هو المهم.»

فقال السيدة فرانكلين: «معك حق. على كل حال، إذا كنت ذاهبة الآن مع سيادته، فسترين بعض الأراضي التي تملكها العائلة، منذ ستة أجيال.»

وكانت تتكلم بلهجة التملك، وأدركت مانيلا أن هذه المرأة وكذلك دوبيتز يشعران بأنهما عضوان من الأسرة.

وقالت مانيلا: «لقد أخبرت بيسي وجين ما عليهما أن تفعلاه بالنسبة لغدائكم، يا سيدة فرانكلين. ورغم أنه سيكون بارداً، فستجدينه لذيذاً.»

فقالت المرأة: «لا نريدك أن تقلقي بشأننا. إذهبي واستمتعي بوقتك ما دمت شابة، فالمشاكل ترافق كبر السن، وكذلك الندم.»

وتساءلت مانيلا عما إذا كانت السيدة فرانكلين قد أمضت وقتاً غير سعيد مع زوجها، هذا إذا كان له وجود أصلاً. فقد

كانت تعلم أن من العادة أن تدعى مدبرات المنزل والطاهيات بلقب سيدة، سواء كن متزوجات أم لا.

ولم تعلّق بشيء، بل قالت: «ليس لدي، يا سيدة فرانكلين، قبعة أضعها أثناء الركوب هنا.»

فأجابت السيدة فرانكلين: «إنني لم أفكر في هذا الأمر من قبل، ولكنني لا بد أن أجد لك واحدة في حقائب السيدة الراحلة والموجودة في المخزن في الطابق الأعلى. كل ما بإمكاني عمله هو إعطاؤك مظلة شمسية.»

«هذه فكرة حسنة. كنت أعلم أنك ستساعدينني.»

فقالت بعدها: «سأنزل القبعات فقد تحتاجينها في وقت آخر. ولكن المظلات الشمسية هي هنا في آخر الممر.»

وغادرت الغرفة إلى حيث كان في الناحية الأخرى من الممر عدد من الأبواب. وكانت مانيلا تعلم جيداً أن البياضات تحفظ هناك. وكانت الملاءات وأكياس الوسائد ذات حواشي من «الدانتيل» المصنوع باليد.

وعادت السيدة فرانكلين بمظلتين شمسيتين، وكانت مناسبة جداً لمن يستقل عربة.

واختارت مانيلا واحدة ذات لون وردي فاتح، وكانت تتلاءم تماماً مع ثوبها، كما رأت، والذي كان من الموسلين الموشى بأزهار الحقل.

قالت السيدة فرانكلين: «أنا واثقة من شيء واحد، وهو أنك لن تري كثيراً من الناس في هذه المنطقة من العالم. ولهذا لن يلاحظ أحد أنك لا ترتدين قبعة إذا أنت أدنيت المظلة من رأسك.»

فقالت: «أشكرك جداً. سأفعل ذلك.»

وهبطت السلالم مسرعة.

وعندما وصلت إلى القاعة رأت من خلال الباب الأمامي المفتوح، الماركيز في الخارج.

كان يربت على رقبتي الجوادين اللذين كانا يقودان العربة، المكشوفة.

كان خادمان يضعان السلتين في مؤخرة العربة وعندما رأى الماركيز مانيلا مقبلة، قال: «دعيني أساعدك في دخول العربة يا آنسة تشيفرن. وأرجو ألا تخافي إذا أنا سقت العربة بسرعة.»

فقالت: «سأحاول ألا أخاف، يا سيدي.»

فساعدها على الإرتقاء إلى المقعد المرتفع، ثم ارتقى هو بدوره، وأمسك باللجام.

وكان الحوذي في مقعده خلفهما.

ثم ابتدأ السير. وفتحت مانيلا مظلتها الخفيفة للوقاية من الشمس. فسألها الماركيز: «ماذا حدث لقبعتك؟»

فأجابت: «عندما هربت، لم أكن أظن أن بإمكان هيرون أن يحملها.»

وسار في طريق ضيقة، وهو يسوق الجياد بمهارة واضحة. وأخيراً قال: «ألا تريدين أن تخبريني ممن أنت هاربة، ولماذا؟»

فاستدارت مانيلا تنظر إليه، ثم قالت متوسلة: «أرجوك، دعني أنسى اليوم كل شيء، وأستمتع فقط بالرحلة هذه. لا أريد فقط أن أفكر بالسبب الذي جعلني آتي إلى هذا القصر... أو ماذا حدث الليلة الماضية. أريد فقط أن أشعر بالبهجة وأنا أرى هذين الحصانين الرائعين يجراننا..

وأفكر في كم من النساء سيشعرن بالغيرة عندما يعلمن بأنني راكبة مع بطل واترلو.»

فقال: «يا لك من مراوغة. وماهرة بما فيه الكفاية لكي تتأكدي من عدم قدرتي على الإستمرار في محاولة كسب ثقتك.»

فسألته: «هل هذا ما تريده؟»

أجاب: «بالعكس، فهذا هو السلام الخالص الذي أردته دوماً، وهو أن أسوق عربتي في أرضي، وراء جيادي، وطبعاً، بجانب أجمل شابة رأيتها.»

احمر وجه مانيلا وهي تلمس الصدق في لهجته. ومضوا في السير بصمت.

أخيراً، أوقف الماركيز العربة في قلب الغابة. دهشت عندما رأت كوخاً خشبياً صغيراً، ونظرت إلى الماركيز مستفسرة، فقال: «هنا نتناول غداءنا عندما نكون في الصيد، وأظن سنجده أكثر بهجة من الجلوس على العشب أو إسناد الظهر على جذع شجرة.»

فقالت: «طبعاً، ثم إنه جميل تماماً.»

وطلب الماركيز من الحوذي أن ينزل السلال، حيث فتحتهما مانيلا.

كان في السلة قسم من الفطيرة اللذيذة كان باقياً من الليلة الماضية، ثم كانت هناك شطائر من اللحوم الباردة. كما أنها لم تنس أن تضع الصلصة الفرنسية اللذيذة وكذلك سلطة جهزت على الطريقة الفرنسية.

وأبدى الماركيز إعجابه بالطعام.

وبعد ذلك كان هناك عدة أنواع من الجبن. واستمتع

الماركيز بكل نوع من انواع الطعام. ثم سكبت مانيلا بعد ذلك القهوة.

ومكثا وقتاً طويلاً يتحدثان وهما جالسان إلى المائدة المصنوعة من خشب السنديان. وكانت النوافذ مفتوحة وأشعة الشمس تتدفق منها.

ولم يكن ثمة سوى زقزقة الطيور، وخشخشة الهوام بين الحشائش.

وكان الحوذي قد قاد الجياد إلى عمق الغابة لتشرب من جدول هناك.

شعرت مانيلا وكأنها تجلس مع الماركيز في كوكب غريب في الفضاء الخارجي.

وساد صمت بينهما استمر عدة دقائق.

ثم سألها الماركيز: «بماذا تفكرين؟»

فأجابت: «أفكر بك. من المستحيل أن أفكر في شيء آخر.»

«وأنا كذلك أتساءل كيف حدث أنك بهذا الجمال، وبنفس الوقت، بهذه المهارة، فأنا أرى الفرق البعيد بين الزوادة التي أعددتها لهذه النزهة، وبين الزوادة التي اعتادت السيدة وايد تجهيزها، ثم أنك تتحدثين وكأنك سافرت إلى كل أنحاء العالم.»

«هذا صحيح، ولكن في مخيلتي، وكذلك من خلال مكتبة كمكتبتك.»

«وأظن سيأتي يوم ما، يأخذك فيه رجل محظوظ إلى كل تلك الأماكن التي كنت قرأت عنها، والتي أصبحت جزءاً من أحلامك.»

كان سؤالاً ينتظر جوابه، في الواقع. وشردت نظراتها

بعيداً عنه، قبل أن تقول: «طبعاً، هذا ما... أتمنى أن يحدث. ولكن، حتى الآن لم أقابل بعد، ذلك الرجل.»

وسرعان ما أدركت، بعد قولها هذا، أن الماركيز قد تحايل عليها ليعلم إن كانت هربت من رجل. وحدثت نفسها بأنها حمقاء إذ لم تدرك قصده إلا بعد فوات الأوان.

ونهضت عن المائدة، قائلة: «إذا كنا سنتابع طريقنا إلى ذلك المكان الذي كنت حدثتني عنه، فمن الأفضل أن أبدأ بتجميع الأشياء في السلة.»

وخيل إليها أن الماركيز سيعترض، ولكنه، بدلاً من ذلك، أخذ يساعدها في إعادة أدوات الطعام إلى السلتين، ثم نادى الحوذي ليضع هذا كله في مؤخرة العربة، وما لبثوا أن شرعوا في السير مرة أخرى.

لم يروا، في الواقع، الخمس مقاطعات تماماً من ذلك الموقع، ولكن المنظر الذي كان منبسطاً أمامهم عند قمة التل، كان في منتهى الجمال والروعة.

وعندما نزلا إلى حيث كانت الجياد في انتظارهما، قالت مانيلا: «رأيتك، عندما كنت واقفاً هناك، وكأنك صاحب هذه الأراضي كلها. إن فخرك البالغ بهذا القصر والتاريخ الذي يكمن خلفه، لا يدهشني مطلقاً.»

فقال الماركيز: «إنني فخور طبعاً، ولكن في نفس الوقت، ثمة نواحي سيئة.»

وانتظرت منه أن يخبرها بتلك النواحي السيئة، ولكنه لم يفعل إذ بدا أنه يستعجل العودة إلى القصر.

فقد كان يسوق العربة بسرعة بالغة جعلت من الصعب على مانيلا أن تحتفظ بمظلتها فوق رأسها أو حتى أن تتكلم.

وعند وصولهما، أوقف الماركيز العربة أمام الباب الأمامي. وأسرع سائسو الإصطبل الذين كانوا في انتظارهم، يمسكون برؤوس الجياد.

وانشغل بإلقاء الأوامر إلى حد جعل مانيلا تدخل القصر دون أن تقول له شيئاً.

وأخذت تفكر، وهي تصعد السلم في مبلغ استمتاعها بهذا اليوم المثير. ولكنها، في نفس الوقت، شعرت بالحيرة لتصرف الماركيز أثناء توجهه عائداً إلى القصر.

كان فلاش جالساً عند قدميها في أرض العربة. وها هو ذا الآن يتقافز في أنحاء الغرفة وكأنه يريد أن يحرك عضلاته.

فقالت تخاطبه: «إنني مشغولة جداً الآن، يا فلاش، ومع أنني أحب أن أخرجك إلى النزهة، فإن عليك أن تنتظر إلى ما بعد العشاء.»

وتساءلت عما إذا كان الماركيز سيرسل بطلبها ليرؤيتها كما فعل الليلة الماضية.

كانت تريد أن تكون معه... أن تتحدث إليه.

وهو إذا كان يشعر بالوحدة، فقد يجد صحبتها أفضل من لا شيء. وتمتمت تقول، إنه إنسان رائع، وكم أنا محظوظة بمعرفته والحديث معه.

وشعرت بالخوف وهي تفكر في مبلغ ما ستشعر به من الشوق له فيما لو كان عليها أن تتركه، أو أن تعود إلى لندن.

كان هذا شعوراً لم تتوقعه قط.

الفصل السادس

صعدت مانيلا السلم ببطء لتأوي إلى فراشها.

وكانت تشعر بالكآبة تتملكها.

ذلك أن الماركيز لم يرسل باستدعائها منذ عودتهما إلى القصر. حتى ولا أتى على سيرة نزهتهما الصباحية في اليوم التالي.

وتساءلت عما تراها فعلته ليستاء منها بهذا الشكل.

أتراه قد وجدها تبعث على الضجر؟

بدلت ملابسها لتستعد للنوم، شاعرة، بشكل ما، وكأن أشعة الشمس، وضوء القمر قد هجراها.

كما أنها شعرت وكأن الضباب يكتنفها حتى لم تعد تفهم شيئاً.

وحدثت نفسها عن روعة نزهتهما الصباحية هذا النهار.

وتذكرت كيف أخذا يتسابقان، هي والماركيز، على ظهر جواديهما.

وعندما شرعا برحلتهما في العربة، شعرت ببهجة لم تشعر بمثلها من قبل.

ولكنها أدركت الآن مبلغ جاذبية الكونتيس.

ربما كان الماركيز يشعر بالشوق إليها.

ولا بد أنه يشعر، بعد الكونتيس، بأنها مملة تبعث على الضجر.

فقد كانت الكونتيس امرأة فرنسية ظريفة ذات تجارب.

وتذكرت مانيلا ما سبق وقاله روبينز عن مقدرتها في إضحاك الماركيز بكل ما تقوله.

كان قد قال لها: «إنك تعلمين ما هم عليه الفرنسيون. فقد طالما سمعت بأن كل ما يقولونه يتضمن معنيين، ولكن يبدو أن الماركيز يفهم معنى ما يقولون على الفور.»

وحدثت مانيلا نفسها بأن عليها أن تحاول أن تتصرف، هي نفسها، بهذا الشكل.

ولكن الماركيز، مهما كان رأيه السابق في الكونتيس فقد زالت الغشاوة عن عينيه الآن وتحرر من ذلك الوهم.

وتساءلت عما جعله ينخدع بامرأة فرنسية.

كانت قد نظرت إلى الكونت والمسيو غريف أثناء ارتمائهما على المائدة في غرفة الطعام.

رأتهما دميمين خاليين من الظرافة، خصوصاً الأخير.

ولم تفهم كيف أن هناك شخصاً عاقلاً يثق بالسيد غريف ويعتبره صديقاً.

لقد أنقذت الماركيز، ولولاها لكان الآن متزوجاً من الكونتيس.

وحاولت أن تشعر بالبهجة لذلك، وأخذت تمشط شعرها فترة كما كانت أمها علمتها أن تفعل، ثم استلقت في سريرها وأطفأت المصباح.

وفي الظلام، شاعرة بالرغبة في الإطمئنان، انحنت تربت على فلاش الذي كان متكوماً على الأرض، وهي تخاطبه قائلة: «إنك كلب رائع الجمال، ولشد ما أحبك فأنت لا تخيب أملي مطلقاً.»

ثم أغمضت عينيها، وأخذت تدعو كعادتها كل ليلة.

وكانت على وشك الإستسلام للنوم، عندما سمعت فلاش يطلق أنة خافتة.

وكان يطلق هذا الصوت عندما يستشعر خطراً ما.

وتساءلت عما يمكن أن يقلقه.

وأنّ مرة أخرى، ثم وقف ومشى نحو النافذة.

فهمست: «ماذا هناك، يا فلاش؟»

وأحست بأن ثمة شيئاً غير عادي.

إنما فلاش لم يكن ينبح، ولكنه كان يطلق صوتاً من حلقه كعادته عندما يكون منزعجاً.

فسألته: «ما الأمر؟»

ونزلت من سريرها، ثم سارت إلى حيث كان واقفاً عند النافذة، وأزاحت الستائر.

تدفق ضوء القمر يغمرها كجدول فضي.

ووقف فلاش على قائمتيه الخلفيتين واضعاً أنفه على حافة النافذة.

ونظرت هي من خلال النافذة إلى الأرض. وفجأة، تجمد الدم في عروقها.

ذلك أنها رأت في الأسفل رجلاً يتسلق جدار المنزل الخارجي.

ولم يكن هذا أمراً صعباً بالنسبة إليه، لأن الجدار كان قديماً مليئاً بالحفر التي كان يضع فيها قدمه بسهولة.

كذلك كانت هناك عتبات النوافذ أسفلها والزخارف التي تعلوها.

أخذت تحدّق فيه وهي تتساءل عما يفعل.

وإذا بها ترى عربة شبه مختبئة عند أجمة في منعطف الفناء.

وبجانب العربة، رأت خيال رجلين.

وكان الرجل يوالي صعوده ببطء.

وفجأة، أدركت مانيلا أنه كان يقترب من نافذتها، وأنه يشبه المسيو غريف.

أطلقت صرخة صغيرة مذعورة وهي تركض نحو الباب تفتحه.

ركضت إلى الشخص الوحيد الذي كانت تعلم أنه ينام في هذا الطابق.

لقد كان جناح الماركيز بعيداً عن غرفتها، ولكنها وصلت في ثوانٍ قليلة، وكان فلاش يركض إلى جانبها.

دفعت الباب ففتحته، ثم اندفعت داخلة، دون تردد مجتازة الردهة، ثم فتحت باباً ثانياً.

وكان هذا الباب ينفذ مباشرة إلى غرفة نوم الماركيز ولم يكن الماركيز نائماً، بل كان مستنداً إلى وسادة يقرأ في كتاب.

ارتفعت عيناه ذهولاً وهو يراها تندفع داخلة إلى غرفته.

وقالت لاهثة: «هناك... رجل يتسلق الجدار... خارج غرفة نومي. إنه... المسيو غريف. أظنه... سيقتلني بسبب ما... صنعته بهم.»

وكانت تتحدث متلعثمة.

وبقي الماركيز لحظة يحدق فيها بذهول. ثم وضع الكتاب من يده وقفز من سريره، قائلاً: «إنني سأتصرف. إمكثي هنا ولا تخافي.»

ارتدى معطفاً منزلياً كان ملقى على كرسي، ثم سار نحو درج أخرج منه مسدساً.

وكانت هي تنظر إلى ما يفعل وقد اتسعت عيناها هلعاً.

لقد تذكرت الآن أن لديها مسدس أبيها لم تستعمله بعد.

وسار الماركيز نحو الباب، وهو يقول آمراً: «ابقي هنا واحتفظي بفلاش معك.»

فهمست: «أرجوك، كن حذراً... فقد يؤذيك.»

ولكن الماركيز كان قد غادر الغرفة.

فظنت أنه ربما لم يسمعها.

جلست على حافة السرير بعد أن شعرت بأن ساقيها لم تعودا تحملانها. ثم وضعت يديها على عينيها.

وكأنما فلاش شعر بأن ثمة شيئاً ليس على ما يرام، فاندس قربها كما هي عادته عندما يريدها أن تلاطفه.

وأخذت هي تربت على رأسه، قائلة: «إنني واثقة من أنه يريد... أن يقتلني... يا فلاش. إنهم لم يصفحوا عني... لأنني ساعدت الماركيز على النجاة منهم.»

وبدا على فلاش أنه يدرك أنها قلقة.

وشدته إليها تحتضنه، وهي ترهف سمعها في نفس الوقت.

وتساءلت عما إذا كان بإمكانها سماع صوت طلقة المسدس من هذا المكان البعيد.

كان الماركيز قد اندفع مسرعاً نحو غرفة نوم ماتيلا.

ولم يكن يصدق أنها تقول الحقيقة.

إذ كيف يمكن لغريف أن يتسلق الجدار قاصداً غرفتها؟ وهل يمكن لرجل أن يجرؤ على القيام بعمل كهذا في القصر؟

ووصل إلى الباب فوجده نصف مفتوح، واشتدت أصابعه على المسدس.

ولما لم يسمع صوتاً، ظن أنها ربما كانت مخطئة، ربما كانت تحلم بكل هذا.

ثم ما لبث أن سمع حركة، فدفع الباب، ثم دخل.

وكانت ماتيلا قد أزاحت الستائر ما بدت معه النافذة مفتوحة.

وكان رجل يتسلق النافذة وقد وضع ساقه على العتبة.

كان يتحرك بخفة جعلت الماركيز يدرك أنه خبير في هذا العمل، وأن من الواضح أنها ليست المرة الأولى التي يتسلل فيها إلى المنازل من نوافذها.

ووقف الماركيز لحظة يراقبه.

ثم وضع الرجل الساق الأخرى على العتبة، ببطء، عند ذلك، ابتدأ الماركيز في العمل.

رفع مسدسه وأطلق النار على ذلك الدخيل، ليس على صدره أو قلبه، والذي كان هذا يسيراً عليه، وإنما على كتفه.

وتجاوب صدى الطلقة في أنحاء الغرفة.

وأطلق الرجل المصاب صرخة ثاقبة، وسقط إلى الخلف.

سار الماركيز متمهلاً إلى النافذة، وأخذ ينظر إلى الأسفل.

رأى الرجل الذي عرف فيه المسيو غريف، وهو يسقط إلى الأرض من علوّ يبلغ الأربعين قدماً.

وكانت تحت النافذة مساكب زهور استقر فوقها لتتلقاه التربة الطرية.

وبينما كان الماركيز ينظر، إذا برجلين يبرزان من داخل الأجمة.

ثم حملا الرجل الفرنسي الذي كان يئن من الألم إلى العربة. وكان واضحاً أن الخوف يتملكهما من أن يقبض عليهما.

وانطلق الحصانان اللذان يجران العربة، بأقصى سرعة نحو الطريق العام.

وأخذ الماركيز يراقبهم إلى أن غابوا عن الأنظار، ثم استدار ليعود من حيث أتى.

وعندما فتح باب غرفته، صرخت مانيلا وهي تقفز عن السرير. وسألته. «هل أنت بخير؟ هل أنت بخير، هل أصابوك بأذى؟»

واندفعت نحوه بلهفة، فأخذ ينظر إليها لحظة. كانت عيناها متسعتين مليئتين بالقلق.

وكان شعرها الذهبي يتألق في ضوء الشموع وهو ينسدل على كتفيها وظهرها.

واشتبكت نظراتهما بصمت.

وشعرت مانيلا بنفسها في موضع لم تعرفه من قبل. وتملكتها رجفة أدركت معها أن هذا هو الحب.

وكان شعوراً أروع مما تصورته على الإطلاق.

قال المركيز أخيراً: «ما الذي فعلته بي؟ كنت أريد أن أمنع نفسي من التفكير بك، ولكن كيف لي أن أعرف بأن ذلك المحتال سيحاول اقتحام غرفتك؟»

فسألته: «هل... هل قتلته؟»

أجاب: «كلا، بل جرحته فقط. وأنا أتعهد لك بأنه لن يعود.»

فتمتمت: «ظننته... ظننته سيقتلني.»

ولكن الماركيز الذي كان يعرف غريف جيداً، فكر في أنه كان يريد اختطافها، ليمنعها من أن تتحدث عما جرى.

ثم يحتجزونها في أحد البيوت في باريس، حيث كانت له اتصالات، ثم يعذبونها.

وطبعاً، لم يكن هذا بالشيء الذي بإمكانه أن يخبر مانيلا به. كما أن من المشكوك فيه أن تفهم ذلك.

فقد كان يدرك مبلغ براءتها رغم قصر الوقت الذي عرفها فيه.

وكذلك جهلها بذلك العالم الذي كان يعيش فيه في باريس، وهو عالم كان يدرك أنه ينتظره في لندن.

قال لها برقة: «إنك في أمان تام، يا عزيزتي.»

فتمتمت قائلة: «كنت... شديدة الخوف... عليك. ثم إن فلاش الذي أخبرني عن... أنني في خطر.»

فسألها: «وكيف كان لهذا أن يحدث؟»

ثم جلس على حافة سريره، وقال: «والآن، استمعي إلي، يا غاليتي، أنني لن أدعك تتعرضين مرة أخرى إلى أمر كهذا، وإننا لن نراه مرة أخرى. ولكنك من الجمال بحيث يجب ألا تطوفي في أنحاء البلاد بمفردك.»

فقالت: «إنني لا أريد... أن أطوف بعد الآن. إنني... إنني أريد أن أبقى هنا... معك.»

فابتسم الماركيز، وقال: «وهذا ما أريده، أنا أيضاً. ولكن لن تكون رعايتي لك سهلة، وعليك أن تساعديني.»

فسألته: «وكيف أساعدك؟»

تنفس بعمق، ثم قال: «عندما أدركت اليوم مبلغ حبي لك، قررت أن أبعدك عني وأحاول أن أنساك.»

صدرت عن مانيلا صرخة ذعر صغيرة، ثم قالت: «ولكن لماذا؟ لماذا عليك... أن تفعل ذلك؟»

سكت الماركيز لحظة قبل أن يقول: «لأنك صغيرة جداً وبريئة جداً، فرأيت أن عملي هذا هو الأفضل لك.»

قالت: «لا أفهم...»

فتردد، وكأنه ينتقي كلماته، ثم قال: «إنني أحبك. أحبك كما لم أحب امرأة من قبل. والحقيقة هي أنني لم أعرف الحب قبل الآن.»

ورأى التألق الفجائي في عيني مانيلا، فاسرع يقول: «ولكن، يا غاليتي، عليك أن تعلمي أن ليس بإمكاني الزواج منك.»

جمدت مانيلا في مكانها وهي تحملق فيه، بينما كان هو يتابع قائلاً: «إن لديّ مسؤولية نحو أسرتي واسمي الذي بقي محترماً على مر السنين.»

وعندما رآها تستمع إليه، إستمر يقول: «يجب عليّ حين أفكر في الزواج، وهذا لن يكون إلا بعد سنوات كثيرة، أن أتزوج إمرأة ترضى عنها أسرتي.»

وكانت مانيلا تشعر، وهي تستمع إليه، وكأن يداً باردة تعتصر قلبها.

واستمر الماركيز يقول: «أما ما قررت القيام به، فهو أن أحميك وأرعاك، وطبعاً يا جميلتي، أن أحبك.»

ولم تنطق مانيلا بكلمة.

وبعد دقيقة، عاد الماركيز يقول: «سأشتري لك منزلاً صغيراً في لندن حيث يمكننا أن نرى بعضنا كلما تمكنا من ذلك. إن لديّ منازل في مختلف أنحاء البلاد حيث لا أحد يلقي أسئلة.»

وسكت قليلاً، ثم عاد يقول: «والآن، حيث أن الحرب انتهت وعدت إلى الوطن، سأستعمل يخت أبي. أو أشتري يختاً آخر نسافر فيه معاً إلى مختلف البلاد الجميلة، وسنكون سعداء جداً، يا عزيزتي، وأؤكد لك بأنك لن تحتاجي بعد الآن إلى العمل في سبيل إعالة نفسك. ذلك أنني سأجعلك غنية بقية حياتك.»

مع أنها كانت تعلم أن عليها التفكير في الأمر، فقد منعتها السعادة التي كانت تشعر بها وهي بقربه، من ذلك.

وأخيراً، قال بصوت أجش: «أريد أن أبقيك معي لأحدثك عن مبلغ حبي لك. ولكن، يا غاليتي، أنا أعلم جيداً أنك تعبة جداً، وما حدث كان بمثابة صدمة لك. ولهذا سأعيدك إلى غرفتك.»

وسكت لحظة، ثم أضاف يقول: «غداً، غداً سنتحدث ملياً عن خطتنا هذه وننفذها بكل عناية، وذلك لكي لا يدرك أحد شيئاً مما نحن بسبيله.»

ثم، وكأنه جندي يؤدي واجبه، قادها خارج الغرفة إلى الردهة.

لم يفتح الباب الذي يؤدي إلى الممر، بل فتح باباً آخر، حيث حمل مصباحاً وسار أمامها إلى غرفة لم تكن مانيلا قد رأتها من قبل.

كانت فسيحة جداً وفخمة الأثاث.

كانت تحتوي على سرير واسع ذي أربعة أعمدة مذهبة علقت به ستارة حريرية.

قال لها برقة: «كانت هذه غرفة أمي. وستكونين فيها في

أمان، يا عزيزتي، حتى الصباح. وبعد ذلك أرى أن تعودي إلى غرفتك، وبهذا لن يعرف أحد بما حدث.»

ولم ينتظر موافقتها بل وضع المصباح إلى جانب السرير. ثم نظر إليها قائلاً برقة فائقة: «إنك غالية بالنسبة لي ولن أفرط فيك أبداً.»

ثم غادر الغرفة.

وبعد ذلك بلحظة، سمعت باب غرفته يغلق، وبقيت دقائق تحدق في الباب المغلق وكأنها لا تصدق أنه تركها.

وعندما أزاحت ستارة السرير، وجدت أن السرير جاهز.

وكانت ملاءات السرير وأكياس الوسائد مزينة الحواشي بالدانتيل.

جلس فلاش قرب السرير باسطاً ذراعيه. واستلقت هي مغمضة العينين وهي تفكر في كل ما جرى.

كان قلبها ما يزال عامراً بالحب وبهجته التي أثارها الماركيز فيها.

وفي نفس الوقت، كان ما حدثها به لا يفتأ يتردد في ذهنها، وكأنها حفرت بأحرف من نار.

فقد كان ما يقدمه لها شيئاً خاطئاً.. خاطئاً وشريراً.

وكان معنى هذا أنها في الوقت الذي كانت تحبه فيه بكل قلبها وروحها، كان هو لا يحبها حقيقة.

لم يكن هذا هو الحب الذي تنشده. الحب الذي لا يرى أية تضحية في سبيله، كبيرة.

الحب الذي يفضل الرجل أن يموت بدلاً من أن يفقد اسمه ومركزه.

رأت، وهي مستلقية، على تلك السرير، أن ما يقدمه الماركيز إليها هو شيء رخيص تافه.

كان شيئاً كانت أمها تعتبره خطيئة.

وكذلك أم الماركيز التي تنام هي الآن في سريرها.

وصرخت في قلبها: «إني أحبه... أحبه.»

ولكن عقلها كان يخبرها بأنه لا يحبها.

تأوهت، ومن ثم تدفقت الدموع من عينيها.

* * *

لم تكن الساعة قد اقتربت من الخامسة صباحاً، عندما هبطت مانيلا السلم الخلفي يتبعها فلاش.

مرت بالمطبخ الخالي متجهة إلى الباب الخلفي، ثم خرجت.

كانت قد بقيت مستيقظة طوال الليل وفي نفسها صراع بين قلبها وضميرها.

شعرت وكأن أمها تقودها، لتدرك أخيراً ما ينبغي عليها عمله.

وحدثت نفسها تقول، إذا أنا بقيت، يكون علي، لأنني أحبه، إما أن أقبل معه بما يريد، وإما أن أخبره بحقيقة أمري.

وكانت تدرك أنها إذا هي أخبرته بشخصيتها، فسيجد أن الشرف يرغمه على أن يتزوجها.

ولكنها كانت تعلم أيضاً أنه لا يعتزم الزواج إلا بعد سنوات كثيرة، كما قال لها بنفسه.

تماماً كما كان عديم الرغبة في الزواج من الكونتيس.

وكان المصباح قد خفت ضوؤه عندما أعملت أخيراً عقلها.

فقالت تخاطب كلبها: «علينا أن نذهب بعيداً عن هنا، يا فلاش.»

فأخذ فلاش يضرب بذيله الأرض ما جعلها تشعر بأنه فهم ما قالته.

وعندما وصلت إلى الإصطبل، كان غارقاً في الظلام.

وكانت تعلم أنه لا بد أن يكون هناك سائس للحراسة، بعكس الحال في بيتها.

فتحت الباب القريب من مربط جوادها هيرون، وهي ترى، على ضوء المصباح المعلق على الجدار، أن معظم الجياد كانت لا تزال نائمة.

ولكن هيرون كان واقفاً.

ووضعت ذراعيها حول عنقه قبل أن تنظر إلى سرجه، وكان هذا معلقاً على الجدار المقابل لمربطه.

سرعان ما تناولته لتضعه على ظهر الجواد، ثم أحكمت ربطه.

ثم ربطت حزمة ثيابها على السرج كما سبق وفعلت حين تركت بيتها، بينما مال هيرون برأسه إلى الخلف ثم أخذ يحك أنفه فيها وكأنما سرته هذه النزهة المبكرة.

وما زال لا أثر لأحد.

وفكرت في أن مكان نوم السائس لا بد أن يكون في الطرف الآخر من البناء.

وحيث أنه كان فتى حدثاً، فقد توقعت أن يكون ما يزال نائماً كلوح من الخشب حسب تعبير مربيتها.

وكانت قد تذكرت إحضار مسدس أبيها معها، فدسته مع خفيها في أحد جيوب السرج.

ثم قادت هيرون إلى الفناء بقدر ما أمكنها من خفة وهدوء.

ولم يأخذ منها امتطاء صهوة الجواد سوى ثوانٍ استقرت بعدها على السرج، ثم أمسكت باللجام.

سارت نحو أقرب بوابة إليها وفلاش في أثرها.

وكانت أولى بشائر الفجر قد ابتدأت تظهر من الشرق بينما أخذت النجوم تبهت وتختفي.

وعندما وصلت إلى الطريق العام، أدارت رأسها تلقي على القصر نظرة أخيرة.

وللحظة واحدة، أخذت تسأل نفسها عن حماقتها هذه التي جعلتها تهرب في الوقت الذي كانت تود من كل قلبها لو تبقى.

وماذا يهم ما تفعله طالما كانت مع الماركيز؟

كانت تريد فقط أن تكون معه، أن تراه وتحبه من كل قلبها وعقلها.

ولكنها كانت تعلم أن ما يريده منها لا دخل له بعقلها. ذلك أنهما إذا عاشا معاً في تلك الحال، فسيكون هنالك دوماً حاجز بينهما.

وهو حاجز لا يمكن، في النهاية، إزالته.

حاجز هو من صنعه وحده لأنه لا يراها لائقة لكي تكون زوجة له.

ومهما حاولت، حينذاك، أن تخادع نفسها، فقد كانت ستعلم، عاجلاً أم آجلاً، أن ذلك سيسمم حبهما. وسيحطمه في النهاية.

ثم عادت تلقي نظرة أخرى على القصر، قبل أن تسرع بجوادها بقدر ما تستطيعه.

كانت هاربة، ليس من الماركيز بسبب ما عرضه عليها، بل أيضاً من نفسها.

من حبها المعذّب لاعتباره إياها غير لائقة له.

الفصل السابع

سلكت مانيلا الطرق الضيقة الملتوية.

ومرت بعدة قرى صغيرة دون أن تهتم بما إذا كانت قد لحظها أحد. كان كل ما تفكر فيه، هو الماركيز.

وكانت تشعر بكل ميل يفصل بينهما، كخنجر يغوص في قلبها.

استمرت في سيرها دون توقف. وارتفعت الشمس في قبة السماء، وازدادت حرارتها. وأخيراً، فكرت في أن هيرون وفلاش لا بد أدركهما العطش.

وما لبث أن انتبهت إلى أنها الآن في قرية كانت أكبر كثيراً من تلك القرى التي مرت بها.

وكان ثمة خان في الناحية الثانية من القرية.

رأت في الخارج عدة رجال يرتدون قبعات عالية. فنظرت إليهم، وإذا بها تراهم ينظرون إليها.

سرعان ما تذكرت، وقد تملكها الخوف، أنها ما زالت هاربة من عمها ولا تريد أن يراها أحد.

وهكذا أخذت تستحث هيرون على الإسراع.

وما أن اجتازت القرية، وتوارى آخر كوخ عن بصرها، حتى استدارت خارجة من الطريق.

كان هناك حقل ينتهي ببعض الأشجار ما جعلها تتكهن بوجود جدول ماء هناك. وكان هذا ما تفتش عنه، فاتجهت نحوه. وكما توقعت بالضبط، كان الجدول هناك.

أوقفت هيرون، بينما ركض فلاش إلى الجدول يشرب منه. وترجلت مانيلا عن ظهر الجواد وهي تخاطبه قائلة: «والآن، إذهب واشرب، فلا بد أنك عطشان. وكذلك أنا.»

وحيث أنها كانت تشعر بالتعب والحرارة، خلعت قبعتها وألقت بها أرضاً.

وما أن قامت بذلك حتى تناهى إلى مسامعها وقع حوافر حصان. استدارت لترى رجلاً على ظهر حصانه يخرج من بين الأشجار.

وللحظة واحدة، لم تستطع تمييزه، ولكنها ما لبثت أن شهقت وهو يقترب منها فتراه واضعاً على وجهه قناعاً، وزاد ذعرها وهي ترى مسدساً في يده اليمنى.

توجه نحوها ثم أوقف حصانه وهو يقول بلهجة عامية: «ذلك ما أبحث عنه. إن هذا الحصان سيجعلني أشعر بالزهو.»

فأطلقت مانيلا صرخة فزع، واتجهت نحو هيرون تمسك بلجامه، وهي تحتج قائلة: «لا يمكنك أن تأخذ جوادي.»

فقال قاطع الطريق: «وهل هناك من يمنعني؟ أريد أن أعرف.»

فقالت له: «سأعطيك كل ما معي من نقود، ولكن ليس جوادي هذا، إنه ملكي وأنا أحبه.»

فرد عليها قائلاً: «وأنا أيضاً سأحبه كثيراً. والآن أعطني ما عندك من نقود، وسأعطيك هذا الحصان العجوز بدلاً من حصانك.»

وكان يتكلم وهو يقيس هيرون بنظراته، ثم قال: «هيا، أعطني اللجام، سأغير الحصانين في الغابة هناك، وأنت محظوظة لكوني أملك شيئاً يمكنك ركوبه.»

فقالت لاهثة: «لن أدعك تأخذه.»

فسألها بخشونة: «وهل ستمنعينني؟»

كانت مانيلا تعلم أنها لو صرخت فلن يسمعها أحد، وأخذت تتساءل مستميتة عما بإمكانها أن تفعل.

يبدو أن قاطع الطريق كان يفكر في ما قالته له، لأنه عاد يطلب منها، قائلاً: «الآن، أعطيني النقود، فحاجتي إليها أكبر من حاجتك.»

فأجابته بتمرد: «لن أعطيك شيئاً إلا إذا وعدتني بأن تترك لي حصاني.»

فأطلق قاطع الطريق ضحكة غير مستحبة، وهو يجيب: «إنني بحاجة إلى الحصان وإلى النقود كذلك. هاتي النقود بسرعة، أو أطلق الرصاص على كلبك.»

أدركت مانيلا أنها هزمت.

وما أن أخذت تتمتم مذعورة، حتى سمعت صوت حوافر حصان تتجه نحوهما. ثم برز رجل من خلال الأشجار.

وقبل أن تراه مانيلا بوضوح، كان هو قد رأى قاطع الطريق وأدرك طبيعة ما يجري.

فسحب مسدساً من السرج، ثم أطلق النار بدون إنذار، على قاطع الطريق.

ومرت الرصاصة من فوق كتفه، فرد عليه هذا بالمثل، وأجفلت الجياد لصوت إطلاق النار.

ووقف حصان قاطع الطريق على قائمتيه الخلفيتين

حتى كاد يسقط هذا عن ظهره، وكذلك فعل هيرون، ولكن مانيلا كانت تقبض على اللجام بشدة.

لكن قاطع الطريق، وقد بدا عليه الخوف مما يحدث، استدار بحصانه داخلاً إلى الغابة.

ورأت مانيلا الرجل الذي أطلق عليه النار، يلحق به.

وتملكها الذعر وهي ترى أنه كان عمها. وكان يتوارى في الغابة، يترنح على حصانه بشكل غريب.

ووقفت تحملق في البقعة التي اختفى منها الرجلان وقد منعها الرعب من أن تعرف ما عليها أن تفعل، أو حتى أن تتحرك.

ثم سمعت طلقة أخرى تجاوبت أصداؤها في الأنحاء، وما أن تشبثت مانيلا بجوادها وكأنها تحتمي به، حتى انتهى إلى مسامعها صوت حوافر حصان آخر، وكان هذه المرة قادماً من الجهة التي قدمت هي منها، وقفز قلبها وهي ترى أنه الماركيز. وكان يعدو قادماً باتجاهها.

وعند وصوله، قفز من على ظهر حصانه، وأسرع إليها يسألها: «هل أنت بخير؟ هل أصابك أذى؟»

فارتبط لسانها ولم تستطع التفوه بكلمة.

ولكنها أدركت أن وجوده يعني نجاة جوادها. كما أنها أدركت أيضاً أنها تريد الماركيز كما لم ترد شيئاً في حياتها قط.

وكان هو يقول: «يا عزيزتي الغالية، يا حلوتي، كيف كان بإمكانك أن تتركيني؟ وكيف تذهبين بهذا الشكل؟ أرجوك يا مانيلا أن تسامحيني... أن تصفحي عني لكوني كنت بتلك الغطرسة والغرور. إنني أعلم الآن أنني لن أستطيع

متابعة حياتي الحياة من دونك، وأريد أن أتزوجك الآن فوراً.»

فرفعت بصرها إليه بحيرة، وهي لا تكاد تصدق أنها تسمع منه هذه الكلمات التي طالما اشتاقت لسماعها منه.

ولم تكن واثقة من أن ما يقوله ليس مجرد تصورات منه. وارتجفت شفتاها واغرورقت عيناها بالدموع.

فنظر الماركيز إليها... ليس ثمة امرأة بجمالها.

ثم قال برقة: «سأكرر طلب الزواج منك بشكل ملائم، راجياً منك الصفح. هل لك، يا فتاتي الحلوة الغالية، أن تشرفيني بقبولك الزواج مني؟»

وشعرت بأن هذا حلم لا يمكن أن يكون حقيقة، وكيف يمكن أن يحدث هذا؟

كيف يأتي الماركيز، هكذا فجأة، بعد أن هربت منه وأثار ذعرها قاطع الطريق، كيف يأتي الماركيز ويطلب منها الزوج؟

لقد كان هذا شيئاً رائعاً وغير عادي في الوقت نفسه. وشعرت بكيانها يرتجف، كما شعرت به يرتجف هو أيضاً.

وعاد يقول بصوت أجش: «لقد ظننت أنني فقدتك. فقد رأيتك تتجهين نحو الطريق العام، عند بزوغ الفجر فلم أستطع أن أصدق أنك حقاً تركتني، فقد كان يملأني التفكير والغرور بأنك تحبينني.»

فهمست مانيلا قائلة: «إنني... إنني أحبك... فعلاً. ولكنني أدركت... أن القبول بما عرضته عليّ هو خطأ.»

فقال: «نعم، إنه خطأ بكل تأكيد. وقد أدركت وأنا أراك ذاهبة أنني دمرت أملي الوحيد بالسعادة.»

وإذا بمانيلا ترى حصاناً خارجاً من الغابة. وعندما اقترب منها، هتفت صارخة: «إنه ماغبي.»

فاستدار الماركيز ليرى الحصان، ثم سألها: «ومن أين لك معرفته؛ فهو ليس الحصان الذي كان يمتطيه قاطع الطريق.»

وما أن وصل الحصان إليهما، حتى صهل هيرون راضياً وكأنه يرحب به.

عند ذلك فقط لاحظ الماركيز أن الحصانين متشابهين إلى درجة غريبة. وسارت مانيلا إلى ماغبي تربت على رقبته.

أخذ الماركيز ينظر إليها لحظة، ثم سألها: «ما دام يبدو أنك تعرفين هذا الحصان، ربما بإمكانك أن تخبريني عن صاحبه من يكون.»

تنفست مانيلا بعمق، ثم قالت: «إن صاحبه هو عمي، وهو الذي... كنت هاربة... منه. وما دام لا يمتطي صهوة ماغبي، عليّ إذن أن أبتعد حالاً.»

ارتجف صوتها وهي تتحدث، واتجهت نظراتها إلى المكان الذي جاء منه ماغبي. ولم يكن هناك أثر لعمها.

ثم، وكأنها أدركت فجأة أن لا حاجة بها بعد الآن إلى الخوف، اقتربت من الماركيز تقول: «هل لك بأن تخبره بأن... بأنني سأبقى معك... وأننا... سوف نتزوج؟»

كانت تتحدث ببطء وتردد وكأنها غير واثقة من أن هذا صحيح حقاً.

أجابها: «سأخبره بأنك لي. ولا أتصور أنه سيعترض على زواجنا.»

ولكن مانيلا أدركت فجأة أنها إذا هي تزوجت الماركيز فلن يكون سهلاً على عمها ابتزاز المال منه لتسديد ديونه.

وعلى كل حال، لم تكن هناك فائدة من أن تقول هذا. بإمكانها فقط أن تتمنى ان يتمكن الماركيز من منع عمها من إخافتها.

وقبل كل شيء، من إصراره عليها للزواج من الدوق أوف دانستر.

واختلطت الأمور في ذهنها وتشوشت بعد كل ما حدث الآن. ولكن هناك أيضاً العجب والحبور اللذان تملكاها لحظة علمت بحب الماركيز لها.

وقد طلب منها الزواج دون أن يعرف هويتها، وكأنه أدرك ما كانت تفكر فيه. فقد قال لها برقة: «دعي كل شيء لي، سأذهب الآن وأرى ما حدث لعمك، بينما تهتمين أنت بالحصانين.»

ثم امتطى صهوة جواده، واتجه نحو الغابة.

أخذت تراقبه برهة ما لبثت بعدها أن تمتمت تشكر حظها لأنه يحبها.

وفي نفس الوقت، كانت تتمنى ألا يقف عمها في طريق زواجها.

والأسوأ من كل شيء، فيما لو صدر عن عمها ما قد ينفر الماركيز ويحمله على الندم لطلبه الزواج منها.

وكان الحصانان الآن يرعيان العشب.

أما فلاش فقد كان واقفاً في جدول المياه وكأنه يتبرد.

اقتربت مانيلا قليلاً من الغابة. فقد كانت خائفة من أن

يظهر الماركيز، في أية لحظة، يجانب عمها المصمم على إحداث المتاعب.

وبعد ما بدا لها الوقت طويلاً، رأت الماركيز يعود وكان وحده.

وعندما اقترب منها، لم تجروء على النظر إليه، خوفاً مما قد ترى في ملامحه.

وصل إليها، وترجل عن ظهر حصانه، ثم اقترب منها، صامتاً.

وبعد لحظة، سألته مانيلا بصوت لا يكاد يسمع: «ما... ماذا حدث؟»

فأجاب: «أخشى يا عزيزتي، من أن يكون عمك قد مات.»

«م... مات؟» ولم تستطع ألا أن تردد كلمته تلك.

وعاد الماركيز يقول: «لقد أطلق عليه قاطع الطريق رصاصة استقرت في قلبه. وهناك جرح آخر في كتفه وهو نتيجة أول مرة أطلق فيها عليه النار.»

أغمضت مانيلا عينيها، وهي تخفي وجهها بين يديها.

عاد الماركيز يقول بهدوء: «ليس هناك ما بإمكاننا القيام به الآن، ولأنني لا أريدك أن تحزني، أظن من الأفضل أن نذهب مباشرة إلى رئيس الشرطة، وقد كان صديقاً لوالدي، ثم نخبره بما حدث بالضبط.»

فسألته: «ألا تريد أن... تنقل... جثة عمي؟»

فأجاب بحزم: «كلا، لا أريد أن يمتلكك الحزن لرؤيته، وكما سبق وقلت لك، ليس هناك ما يمكننا عمله. فقد اخترقت الرصاصة قلبه. ولا بد أنه قد توفي على الفور.»

ولم ينتظر جوابها، بل ساعدها على امتطاء جوادها.

ثم فك لجام ماغبي الذي كانت هي قد عقدته حول رقبته. قاده ثم امتطى صهوة جواده، ثم عادا من خلال الأشجار إلى القرية. وتبعهما فلاش.

ولأول مرة، منذ هربها من بيتها، لم تجد مانيلا ضرورة للإسراع.

نظرت إلى الماركيز، فابتسم لها قائلاً بلطف: «لشد ما أحبك. عندما نعود إلى القصر، سيكون بإمكاني أن أخبرك بمقدار ذلك الحب.»

فبادلته بابتسامة أكبر.

وأثناء الطريق، رأت أن الشمس لم تتألق بهذا الشكل من قبل قط. وشعرت، والماركيز بجانبها، وكأنهما ينطلقان إلى عالم جديد.

عندما اقتربا من القرية، لم يكن هناك أحد سوى بعض الأولاد يلعبون على الحشائش.

دهشت وهي ترى الماركيز يتوقف بجانبهم، ثم يخاطبهم قائلاً: «أريد أن أشكركم لأنكم كنتم من المهارة بحيث أخبرتموني بالطريق الذي ذهبت منه السيدة، وأنه كان هناك قاطع طريق مختبئاً بين الأشجار. إذهبوا الآن واشتروا لأنفسكم ما تريدونه من أصناف الحلوى وخذوا هذه النقود.»

وأخرج محفظته وأعطى لكل من الأطفال الصغار نصف جنيه، ولكل من الأولاد الكبار جنيهاً كاملاً.

فأخذوا يحدقون في النقود بين أيديهم وقد جمدوا في أماكنهم، وقد منعهم الفرح من إبداء شكرهم له.

وعندما تابعا طريقهما، قالت مانيلا بصوت خافت: «لو

أنهم لم يخبروك بمكاني... لكان قاطع الطريق قد سلبني هيرون.»

فقال الماركيز: «ربما كان عمك سيمنعه من ذلك. ولكنني لا أستطيع أن أفهم السبب في أنه، ما دام في يده مسدس، لماذا لم يصب قاطع الطرق برصاصة تشلّه على الأقل، عن الحركة.»

فأجابت: «لقد كان أبي يقول دوماً إن عمي هربرت لا يحسن الرماية، وكان يضايقه أن يرى أخاه مفضلاً حياة المدينة على حياة الريف.»

فقال: «لا أظنني رأيت عمك من قبل قط.»

وكان يفكر أثناء قوله هذا بأن عمها يبدو شخصاً منفراً.

لقد أدرك الآن السبب في خوف مانيلا منه.

سارا صامتين فترة، قال الماركيز بعدها: «إن رئيس الشرطة ساكن على بعد ميل فقط من هنا، ولهذا سنزوره في طريقنا إلى القصر. وأنت ستخبرينني، يا غاليتي، باسم عمك، كما أظن أن تشيتون ليس اسمك، ما هو إسمك إذن؟»

فأطلقت مانيلا ضحكة قصيرة، وأجابت: «إنه أمر غريب، ولكن في منتهى الروعة... وذلك أن تطلب الزواج مني بينما لا تعلم حتى إسمي.»

أجاب الماركيز: «لقد أدركت وأنا أراك تاركة القصر هذا الصباح، بأنك لو كنت ابنة قاطع الطرق نفسه، فسأتزوجك رغم هذا.»

فتنفست مانيلا بعمق، ثم قالت: «لو أنك فقط تعلم كم تمنيت سماع هذه الكلمات منك.»

فقال آمراً: «والآن، عليك أن تخبريني بشخصيتك الحقيقية، وعن إسم عمك.»

فهمست تقول: «لقد كان عمي هو الإيرل أوف أفوندال السابع، وكان شقيق أبي، وقد ورث اللقب لأنني كنت ابنة أبي الوحيدة.»

وترددت قليلاً قبل أن تتابع قائلة: «كنت هاربة منه لأنه، حيث أنه كان غارقاً في الديون، كان يريد أن يرغمني على الزواج من رجل عجوز غني هو الدوق أوف دانستر.»

فحملق الماركيز فيها بدهشة بالغة، ثم هتف يقول: «ولكنني أعرف والدك عندما كنت صبياً حدثاً. وكان أبي يحبه جداً. لماذا لم تخبريني بهذا؟»

أشاحت مانيلا بوجهها عنه دون أن تجيب.

فقال الماركيز: «إنني أعرف الجواب. لأنك كنت تخفين حقيقتك تحت إسم فرنسي.»

فقالت: «إنه إسم جدتي.»

قال ببطء: «وعندما عرضت عليك أن نعيش معاً دون زواج، ظننت أنني لا أحبك حقيقة.»

ومرة أخرى لم تجد مانيلا ما تقوله.

اقترب الماركيز بحصانه نحوها قليلاً، وقال: «لقد كانت حماقة مني لا تغتفر أن لا أدرك أن فتاة نشيطة ومهذبة مثلك لا بد هي سليلة أسرة مشابهة لأسرتي.»

وسكت لحظة، ثم تابع يقول: «لا أستطيع أن أقول سوى أنني أشعر بالخزي لانعدام الملاحظة لدي في أن أدرك أي فتاة رائعة عديمة النظير هي أنت، ولكوني كنت ظننت ولو

لحظة واحدة، أن بإمكاني أن أكون سعيداً بدون أن تكوني زوجة لي.»

فقالت: «أرجوك، لا أحب أن نتحدث في هذا الأمر... بعد الآن. أنا أحبك، وبما أنك تحبني فأنا أشعر بأنني سأطير من السعادة.»

وتهدج صوتها وهي تتابع قائلة: «أريد أن أنسى... كل مخاوفي السابقة تلك.»

فقال: «سأكون حريصاً على ذلك.»

ونظر إليها بطريقة جعلت قلبها يقفز بين ضلوعها.

* * *

وفيما بعد، في تلك الليلة نفسها، كانت مانيلا مستلقية مرة أخرى على ذلك السرير المذهب والذي كان من قبل يخص كونتيسات آل باكينغدون.

وكانت في انتظار حضور زوجها من خلال الباب الموصل بين الغرفتين.

كان من الصعب عليها أن تصدق أنها الآن متزوجة.

فقد كان الماركيز قد دبر كل شيء.

قابل أولاً رئيس الشرطة الذي أخبره بأن لا يقلق نفسه لهذا الأمر. وأنه سيرسل رجاله لإحضار جثمان الإيرل وإرساله إلى آفوندال انتظاراً لدفنه.

وعندما كانا عائدين، قال لها الماركيز: «في رأيي، يا غاليتي، أن أفضل شيء نفعله هو أن نتزوج على الفور.»

فنظرت إليه مانيلا ذاهلة، فقال يشرح لها الأمر: «إن عمك، رغم علمي بشخصيته المرعبة التي كانت عليها، قد

أصبح بعد وفاة أبيك رأس الأسرة. يجب أن نرسل خبراً لكل أقاربك في حالة رغبتهم بحضور الجنازة.»

وسكت لحظة وكأنه يزن الأمر، ثم عاد يقول: «وهذا يعني أن ليس بإمكاننا الجلوس بمفردنا دون وجود وصيفتك وطبعاً لا بد أن تمرّ فترة الحداد والتي تستغرق أشهراً عديدة، قبل أن نستطيع الزواج.»

فقالت برقة: «إنني... لا أريد أن... أتركك.»

أجاب: «وأنا لن أسمح لك بذلك أبداً، وبما أن رجل الدين كان يخدم معي في الجيش، فبإمكاني الزواج دون ضرورة لإذن رسمي بذلك.»

ولما كانا يسيران راكبين الواحد بجانب الآخر، نظر إليها الماركيز يسألها: «هل تتزوجينني بهذه السرعة، يا عزيزتي؟ وإلا علينا أن ننتظر طويلاً قبل أن نسافر في شهر عسلنا، وإن كان المكان لا يهم ما دمنا معاً.»

فقالت: «سأكون سعيدة معك ولو على قمة جبال همالايا... أو في قاع البحر.»

فضحك الماركيز، وهو يقول: «لا يمكنني أن أعدك برحلة إلى قاع البحر، ولكنني سآخذك إلى الهند بكل تأكيد وإلى بلاد كثيرة غيرها يمكنني فيها أن أحدثك عن حبي.»

وعندما لاح أمامهما القصر، قالت مانيلا: «أظنك تعلم بأن ملابسي قليلة جداً. وأخشى أن تجدني معدومة الأناقة مقارنة بتلك السيدات البالغات الأناقة... واللاتي قابلتهن في باريس، ولندن.»

فأجاب: «إنك تبدين رائعة الجمال في أي ثوب ترتدينه، وأنا لن أرى منك سوى قلبك وحبك. وعلى كل حال، فقد سبق

وصممت على إرسال واطسن إلى لندن غداً ليخبر كبار صانعي الملابس بأن يحضروا أجمل ما عندهم من ملابس لكي تختاري منها ما يناسبك.»

فسألته: «وهل سيوافقون حقاً على القدوم؟»

فأجاب وهو يغمز بعينيه: «سأكون في غاية الدهشة إذا هم لم يقفزوا فرحاً بهذه الفرصة.»

هتفت قائلة: «طبعاً، فقد نسيت مبلغ الأهمية التي تحظى بها.»

وأدرك المركيز ما كانت تعنيه بقولها هذا، فهو شيء لا يمكن أن تنساه امرأة.

لقد أحبته، بكل بساطة، لشخصيته كرجل وليس كصاحب مركز مرموق، وهذا هو الحب الذي كان يسعى إليه.

وهو قد أحبها لأنه لم يقابل قط فتاة مثلها من قبل كانت بريئة طاهرة ونقية من جميع النواحي التي يمكنه التفكير فيها.

وعندما وصلا إلى القصر، أخذها إلى غرفة أمه، وهو يقول لها: «هذه غرفتك، ولم تسبقك إليها قط كونتيس بمثل الجمال الرائع الذي تتمتع به أول ماركيزة وهو أنت.»

فقالت: «ما دمت تظنني رائعة الجمال، لم يعد هناك ما يهمني.»

وتملك مدبرة المنزل السرور البالغ حين علمت بأنهما سيتزوجان، وأحضرت كل الأشياء التي تجعل مانيلا تحس بنفسها عروساً.

وحضر رجل الدين في الساعة السادسة والنصف وكانت مانيلا هذه الأثناء قد ارتدت ثوبها الموسلين الأبيض.

ولكنها وضعت على رأسها نقاباً أبيض بالغ الروعة يعلوه تاج مرصع بالجواهر.

وكانوا أخبروها أن ستة من الكونتيسات الراحلات قد وضعن هذا النقاب والتاج النفيس في عرسهن.

وكانت باقة الزهور التي حملتها تحوي الأوركيد والياسمين.

وعندما أحضرها الماركيز إلى الغرفة الكبيرة التي سيتم فيها عقد الزواج، وجدت أنها كانت مزينة بنفس هذا النوع من الأزهار.

وكان من بين الشهود السيدة فرانكلين والسيد دوبينز وطبعاً فلاش.

وطبعاً، كان هذان المستخدمان في غاية الزهو لكونهما شاهدين في هذا الحدث الرسمي.

وعندما انتهت مراسيم الزواج، صعد العروسان إلى غرفة جلوسها الخاصة.

كانت غرفة جميلة لم ترها من قبل، وقد زينت بنفس نوع الأزهار التي تحملها، حتى انها ظنت أن البستاني لا بد أفرغ كل البيوت الزجاجية التي تزرع فيها النباتات.

وهناك تناولا غداء خفيفاً، فكرت مانيلا بأنه صنع بمنتهى الصعوبة، ولكنه ممزوج بحب الفتاتين بيسي وجين وبقية المستخدمين في المنزل دون شك.

لم يكن طعاماً فرنسياً، ولكنه لذيذ للغاية.

ولكنها كانت تعلم، على كل حال، أن أيّ طعام الآن سيكون من أطيب الأطعمة.

وعندما انتهى الطعام، أخذها الماركيز إلى غرفتها.

وكانت مانيلا قد خلعت عن رأسها النقاب والتاج قبل الغداء كما نزعت المشابك من شعرها، فاسترسل على كتفيها.

وحين جلست على الاريكة، جلس إلى جانبها ينظر إليها وهو يسألها: «هل أنت أمامي حقيقة؟»

فأجابت: «هذا ما كنت على وشك... أن أسألك. إني خائفة من أن يكون هذا حلماً أستيقظ منه لأجد نفسي... ما زلت هاربة من عمي هربرت... نتيجة تصميمه على أن يزوجني... للدوق.»

فقال الماركيز: «وبدلاً من ذلك، تزوجتني أنا. وحسب ما أنا متأكد منه، فإني أول رجل في حياتك، يا عروسي الغالية. فأنا أعلم أنه لم يكن في حياتك رجل غيري.»

وشعرت بنفسها في قمة السعادة.

تمت

الهاربة

عندما أخبر الإيرل أفوندال ابنة أخيه مانيلا أن عليها أن تتزوج من الدوق أوف دانستر، تملكها الذعر، وهكذا هربت من البيت عند الفجر، ممتطية صهوة جوادها الحبيب هيرون، وفي أعقابها كلبها فلاش.

وعند وصولها، في حياتها الجديدة، إلى قرية صغيرة، علمت أن نبيل المقاطعة، الماركيز أوف باكينغدون بحاجة إلى طاهية. وهكذا أخذت هذا العمل متنكرة باسم زائف. ولكن، عندما أنقذت حياة الماركيز، أصبحا صديقين، وعندما انقلبت الصداقة إلى حب، أخذت الهوية الزائفة التي جلبت الحرية إلى مانيلا، تهدد فجأة بتدمير سعادتها.